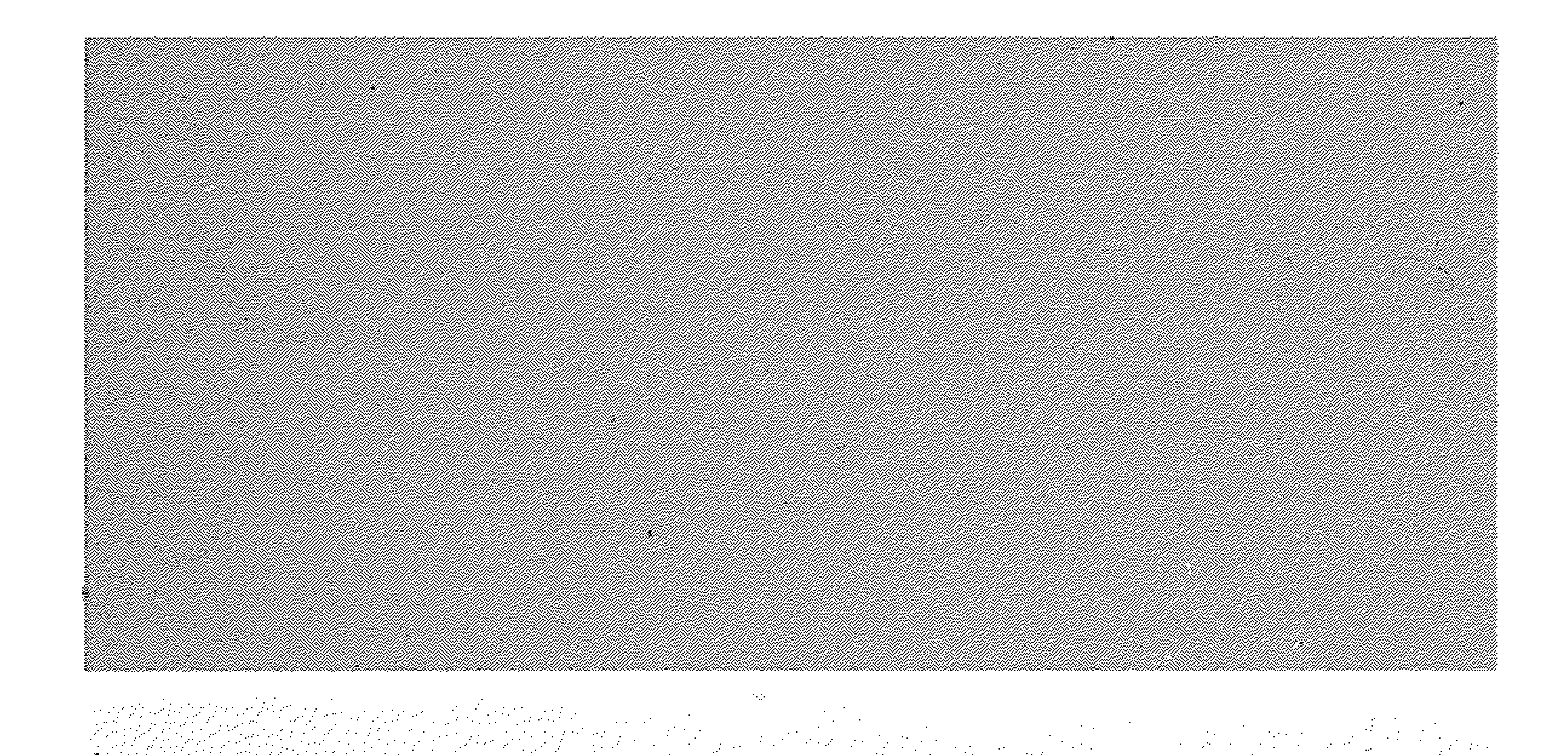


د. رفعت السعيد

كلام فى السياسة

إهـــــــداء ٢٠٠٦

المرحوم / يوسف درويش

القاهرة

كلام فى السياسة

د. رفعت السعيد

كلام فى السياسة

- معنى ان تعرف الواقع
- الاسقف المنخفضة
- التناقض المتداخل

د. رفعت السعيد

سئل الإمام القرافى: متى يضيع العلم
إذا تركته؟
فقال: كفاك بترك العلم إضاعة له.

لـــمـــــاذا..؟

نحن جميعاً نتداول النقود، نستعملها، نتمناها، ندخرها أو نفتقدها . كل إنسان فى هذا الكون كله يستخدم كلمة «نقود». عشرات، مئات، ربما آلاف المرات كل يوم يستخدم الانسان هذه الكلمه السحريه «النقود».

ولكن من منا يعرف المعنى الحقيقى للكلمة.. ومعناها اللغوى.. [من الاصل «نَقَدَ»] أو محتوها العلمى؟. ربما نسبة ضئيلة جداً هى تلك التى تتوقف على غير المعتاد لتسأل: لماذا يمكن لورقة ملونه، مجرد قطعه ورق صغيرة أن تشترى بها وفى مقابلها سلعة ما؟ لماذا تمتلك هذه الاوراق الملونة تلك القوة السحرية التى تجعل منها أداة تداول سلعى.. وما الذى يمكنها من أن تكون ثمنا لأشياء ثمينة ربما أنفق آخرون فى صنعها مئات وربما آلافاً من ساعات

العمل المضنى، أو ساعات التفكير المتأمل؟.

كيف يمكن لعدد كبر أو صغر من هذه الوريقات الملونه ان يقنع صانعاً ماهراً، أو تاجراً شاطراً بأن يعطيك مقابلها سيارة، أو تحفة فنية، أو منزلا .. أو شئ آخر؟

هكذا نحن دوما.

نصنع الكلمه، نشتقها، او بالدقة ننحتها ثم نضع لها تعريفاً دقيقاً، ثم نطرحها للتداول، فاذا ما إقتنع الناس بها، تداولوها بعد أن يعرفوا معناها، ويتفقوا على المقصود منها. ثم... نتداولها، نتداولها، ونكرر تدوالها.. عشرات، مئات، آلاف، ملايين المرات. نكررها وننسى معناها، يتلاشى رويداً رويداً فى ذهننا، ونرحل وتأتى موجة جديدة، موجات، تتوارث الكلمات، تلتقطها، ترددها، تكررها دون أن تسعيد معناها. وبعد فترة تبقى الكلمه، ويضيع المعنى.. ويختفى ولا يعبأ به أحد.

* * *

هكذا الامر فى الحياة.. وفى الفكر وفى السياسة، وأيضا فى الثقافة . وتستثير كلمة ثقافة شهوة سؤال لهؤلاء الذين يرددون كثيراً، وكثيراً جداً كلمات: ثقافة ، مثقف،

مثقفين، تثقيف.. الخ هل سأل أحد منهم نفسه من أين أتت هذه الكلمه الغريبه على مفردات اللغة العربية. الأصل أو كما يقول اللغويون «الجذر» لهذه الكلمه هو «ثَقَفَ». وثقف السهم أى جعله مدبباً، ليجعله أكثر قدرة على إصابه الهدف.. بمعنى جعل العقل أكثر فهماً، ومن ثم أكثر قدرة على إصابه الهدف الأسمى الذى هو المعرفة.

فهل فكر أحد منا فى هذا الأمر وهو يردد ببساطه .. ثقافه.. مثقفين .. الخ؟

طبعا.. لا.

نحن نستسهل إستخدام الكلمات، ونستسهل قبولها أورفضها دون ان نتمعن فى معناها، ومغزاها.

نرددها نقبلها، نرفضها وفق إنطباع عام قد نخلقه نحن، أو ينسجه آخرون خيمة أو حتى غيمة تظلل أعيننا وعقولنا بظل فهم محدد.. قد لا يكون صحيحاً .. أو قد لا يكون كاملا.. أو حتى مفهوماً.

وحتى الذين يريدون المعرفة الدقيقة فيلجأون إلى القواميس قد يلتقطون فى ساحتها الفهم الخاطئ الذى يكرس خطأه أنه آتٍ نقلا عن «القاموس» الذى يفترض

طبعا أنه صحيح. ناسين ان القاموس «كلمات»، وان الكلمات تُفهم وتقال ويجرى تداولها وفقا لمعنى سائد وفهم سائد، ووفق تركيبة فكرية سائدة. فماذا لو كان هذا المعنى أو المفهوم أو التركيبة.. خاطئاً أو خاطئة سيان؟

معناه ان الخطأ يسرى، يسيطر، ويؤثر فنصبح أسرى له.

مثلا القواميس العربية [أو أغلبها] تقول ان «عَرِفَ»= «عَلِمَ».

وهذا خطأ كبير، بل فادح وهو تعبير عن عدم فهم للفارق الجوهرى بين «العلم» و «المعرفة» وبين أن يعرف الانسان شيئاً، وأن يعلم مكنونه .. فما أسهل ان تقول «عَرِفَ» السيارة أى تعرف عليها . أما «عَلِمَ» السياره فإنه يدخل بك إلى عالم الميكانيكا والكهرباء والتصميمات.. الخ.

ومن ثم يكون من الضرورى دوماً ان نراجع فهمنا لمحتوى الكلمات ومعناها.. والمغزى المختزن فيها..، وأن نراجع الفهم الشائع فقد يكون خاطئاً، أو غير دقيق، فحتى القواميس قد تخطئ..

* * *

ذلك أن التكوين الايديولوجى للفرد أو للجماعة يمكنه

بل حتما سيفرض عليه أو يفرض به فهماً محدداً، لكلمة محددة، قد يفهمها الآخرون فهما آخراً ليس لأنهم حمقى أو لا يتقنون «اللغه» وانما لانهم وببساطة يتخذون موقفا فكرياً محدداً يجعل فهمهم للكلمات منتمياً لتركيبتهم الفكرية.

كمثال: كلمه «جدل» نحن نستخدمها - أو كثيرون منا على الأقل - فى حياتنا كمرادف لكلمة «حوار» فى حين أن معناها الاكاديمى الذى صاغه الفلاسفة الاغريق والذى يستخدم علمياً واكاديمياً حتى الآن هو « البحث عن الاخطاء فى إستدلالات الخصم» فى حين ان «الحوار» هو شئ آخر تماماً انه «مناقشة» أو حتى «دردشة» وغالباً ما تكون أقرب إلى «التفاهم» أو «التقارب» فى الآراء..

وبإمكاننا ان نورد عشرات، ومئات من الامثلة الأخرى.

هناك كمثال كلمه سنتوقف أمامها فى أحد فصول هذه الكتابه وهى كلمه «تناقض» وسوف نجد انها ترد بمعنيين معنى سطحى ، مسطح، يقودنا إلى تعامل خاطئ تماماً مع الكلمة والتركيبات اللغوية والمنطقية والفكرية المرتبطة بها، ومعنى علمى، فلسفى يقودنا الى فهم مخالف تماماً..

* * *

والكلمات كائنات حية، ذلك انها تعبر عن مفهوم إجتماعى لها يتغير بتغير الزمان والمكان والموقف الاجتماعى والسياسى.

وثمة نماذج عديدة لكلمات تغير معناها إلى النقيض بسبب تغير المفهوم المجتمعى لها. كمثال كلمه «غانية» معناها فى الاصل الصحيح «السيدة الجميلة» وفى القواميس : الغانية هى «من إستغنت بجمالها عن أية زينة إضافية»..ولكن الآن، هل يمكن أن نصف سيدة جميلة بأنها غانيه؟ وكلمة «بلطجى» بمفهومها الحالى عكس معناها الاصلى القديم، فأصلها تركى «بلطه جى» أى رجل البلطة وكانت تستخدم لتصف أشجع الجنود الذين نسميهم الآن «الصاعقة» فهم طلائع الجيش، يتقدمون حاملين البلطة ليفسحوا للجيش طريقاً وسط الاعشاب والاشواك والعوائق.. والفارق واضح بين معنى الامس ومعنى اليوم، لذات الكلمة.

ولماذا نذهب بعيداً؟. لنأخذ كلمة يسار.. لقد تغير معناها منذ بضعة سنوات فقط. فقبل إنهيار الاتحاد السوفيتى كنا ننظر إلى أحزاب «الاشتراكية الديمقراطية» على أنها احزاب

انتهازية، خائنة، وفى أحسن الألفاظ وأكثرها تهذيبا «يسار زائف». الآن وتحت وطأة أحداث ساحقة، نحتاج بحكم عوامل نفسية سواء بالنسبة للجماهير، أو حتى بالنسبة لأنفسنا إلى بصيص أمل، أو لمحة تفاؤل فنزهو بفوز من كنا نعتبرهم فى الماض« زائفين ومضللين لحركة الجماهير.

كذلك فإن كلمات عديدة ومنها كلمة «يسار» لا يمكن فهمها إلا مقارنة بعنصر آخر يكون نقيضاً أو مخالفاً لها. فعندما نقول «يسار» لابد أننسأ يسار بالنسبة لمن؟ فالتجمع مثلا هو يسار القوى السياسية السائدة فى المجتمع. لكن هناك قوى أصغر حجما وأقل ثقلا.. تقف على يساره.. وتعتبره يمينها. وليس شرطا ان يكون يسار اليسار هو الاكثر ثورية، فالاكثر ثوريةهو الاكثر صحة. والاكثر إلتقاءً مع الواقع وهذه العبارة لا تعنى ان التجمع يعتبر نفسه الممثل الوحيد لليسار ولا أن مواقفه وحدها هى الصحيحة تماما

ولأن «اليسار» مفهوم نسبى أى يفهم بنسبته إلى طرف آخر فى المعادلة، فأنه يستخدم للتعبير عن موقف نسبى كأن نقول «يسار الوسط».. وهذا ليس يساراً بالمعنى المفهوم

لكنه موقف لقوى تتباعد نسبيا عن الوسط دون ان تغادره، ودون ان تدخل إلى ساحة اليسار الحقيقى.

والأمر لا يقتصر على لغتنا العربية، بل لعله يمتد إلى كل اللغات فكلمة Damn بالانجليزية [كمثال] تستخدم كسُباب «اللعنة» «إلى الجحيم» أو تنويعات أخرى بنفس المعنى بينما كان جذرها اللاتينى يستخدم للاستحسان المبالغ فيه «إنه رائع جداً..» أو «عظيم جداً» أو ما يشبه ذلك.

* * *

ومن ثم فان هذه الصفحات المقبلة تستهدف بأن تمسك بتلابيب بعض العبارات التى فهمها البعض فهماً خاطئاً، أو ناقصاً، أو مغلوطاً أو حتى تقبلها وتعامل معها ولكن بمفهوم سطحى لم يغادر الفهم المبسط إلى عمق المعنى وبعده الحقيقى، ثم ساد هذا الفهم، وسيطر السائد على عقول البعض منا، فجعل فهمنا للعبارات غير دقيق أو خاطئ، وبنينا على هذا الفهم بسيطاً كان أو سطحياً أو خاطئا مفاهيم أو حتى مواقف خاطئه أو غير دقيقة.

هدفنا إذن الا نرفض فهماً محدداً لعبارات محددة أو أن نفرض فهماً، وإنما أن نبحث معاً عن معنى صحيح أو أقرب

إلى الصحه لعبارات تفرض نفسها على ساحة الفعل السياسي ويكون الخطأ في فهمها سبيلا لمواقف خاطئة، كما يكون التفاوت في فهمها سبيلا لتفاوت في المواقف .

ولأن هذه العبارات تمثل محاور مهمة في حياتنا الراهنة، فإن السعى الى تحديد فهم محدد متفاهم عليه سيكون سبيلا لتقارب فكرى حول قضايا مهمه في عملنا السياسى والفكرى.

أو هذا ما نحاول ان نحققه.

د. رفعت السعيد

يوليو ٢٠٠١

قالوا: تعرف فلان؟

قال: أعرفه.

قالوا: عاشرته؟

قال: لا

قالوا: يبقى متعرفوش

«حكمة شعبية»

معنى ان تعرف الواقع

فى بداية الخمسينيات كنت لم أزل فتى صغيراً، بل صغيراً جداً، وكلفنى المسئول أن أكون «أنا!» مسئولا عن خلية فى قرية ميت الحلوج [مركز دكرنس] لأن مسئولها [الشيخ عبد السلام الخشان]كلف بمسئولية أخرى.

وعبر رحلة ليست طويله هبط فتى نصف إرستقراطى، ساخط لأن البنطلون والقميص قد دهستهما زحمة تاكسى بالنفر يحمل فى المرة الواحدة ما يزيد على خمسة عشر راكباً ، لا أدرى كيف؟.

سأل الفتى أول عابر سبيل عن منزل الشيخ عبد السلام الخشان تأمله العابر فى دهشة صامتة، وأجاب بإشارة إلى منحني وقال: «هنا». ومن هنا إلى هنا أثار الفتى الانيق الثياب دهشة قرية بأكملها حتى توقف به السير أمام منزل

متواضع، الباب مفتوح، سيده تعجن ، حمار مربوط، الشيخ أتى بجلبابه الفضفاض. تأملنى فى صمت تماما كما فعل عابرو السبيل وإنحنينا جانبا.. إبتسم الشيخ الضاحك دوما ولطمنى بعبارة قاسية «إنت بأه الخبير الاجنبى؟.» وعبر حوار مضن حاول فيه تعميدى بماء القرية السحرى والغامض بالنسبة لى، والطبيعى الوحيد بالنسبة له، إنتقد مبدأ أن آتى اليه بهذه الملابس [تخيلت منظرى وأنا أحاول أن أخرج من منزلى مرتديا البيجاما، فليس لدى جلابية كما أراد الشيخ]

وبدأت عملية صناعة المستحيل.. أن يحاول الشيخ غسل الفتى من تقاليد وأساليب وملابس وتعبيرات ومستوى حديث «أهل البندر».

علمنى الشيخ عبد السلام درساً لا ينسى، إن أردت ان تأتى إلى هنا فى عمل سياسى،إلبس كما يلبسون، وكل كما يأكلون، وتحدث كما يتحدثون، وتفهم طباعهم وتقاليدهم وإحتمل شكوكهم فى الغرباء، باختصار كُن واحداً منهم..

وأعترف الآن أننى حاولت.. بذلت جهدى، لكننى فى نهاية الأمر وبعد سنوات عده من العمل مع الرفاق الفلاحين

أحسست أننى ألعب دور الفلاح فى تمثيلية غير متقنة.

* * *

ولقد تعمدت ان أبدأ بالريف كشريحة من الواقع المصرى محاولاً أن أشرح - عبر أصعب الشرائح - ماذا أعنى بفهم الواقع.

فاليسار المصرى وعبر محاولات مضنية وتاريخ طويل جداً بدأ من عام ١٩٢٣ حاول، وحاول، وبذل جهداً فوق جهد، من أجل إيجاد مراكز له وسط الريف، لكن النتيجة كانت محدودة جداً.

«فالافندية» الذين حاولوا نقل الفكر والوعى إلى الريف ظلوا عاجزين عن إدراك معنى ومفهوم العمل وسط الفلاحين.

ورغم جهود وتضحيات، كانت الثمار محدودة، فإن وجدت ثمرة ظلت محدودة النمو، وحتى محدودة النضج .. ربما بسبب أسباب عديدة. منها علي سبيل المثال:

* إن «النظرية»التى كنا نبشر بها صعبه الفهم على المثقفين، فما بالنا بالفلاح الأمي أو - فى أحسن الاحوال - نصف الأمى؟

* إن رسلنا إلى الريف لم يستطيعوا تفهم قواعد وضوابط ومفهوم العمل وسط الفلاحين، ولم يدركوا طبيعه «الفلاح» وتوازنه النفسى، وموروثه الثقافى، والقيم التى تحكم سلوكه.. وإكتفوا بشعارات «الارض لمن يفلحها»، «الديمقراطية» و «العداء للامبريالية» و «الاشتراكية» فوضعوا بذورهم فى تربة غريبه دون أن يمدوها بالمخصبات التى تمنحها قدره النماء.

* ان محور إستراتيجية العمل فى الريف كانت تعتمد على طالب - جامعى أو ثانوى - ريفى يتم تجنيده خلال العام الدراسى، هو يضم مجموعة الفلاحين [وكانوا يأتون اليه بسهولة فهو إبنهم وأخوهم، وجارهم، وإبن قريتهم] ثم وعندما يغادر يذهب «أفندى» من المدينة فيكون حضوره بداية لذهاب الطيور إلى أعشاشها القديمه.

* رغم حديثنا عن التعرف على الريف ومشاكله إعتمد الأمر - فى أحسن الاحوال - على قراءه أرقام عن وضع الريف، وتحليلات مدرسية عن «الاقطاع» و «توزيع الملكية». وحتى هذه المعلومات والتى كانت محدودة جداً، وسطحية جداً لم تفد فى قليل أو كثير. بل كانت تزيد

محاولات التفاهم مع العضوية الفلاحية تعقيداً، وتخلق فجوة واسعة جداً بين «الافندى» المتحدث وبين المتلقى المنبهر .. والذى يتحول إنبهاره الأولى إلى حالة من التباعد .. فهو لا يفهم ما يقال، وفى أحسن الاحوال يشعر أن هذا الأمر فوق طاقته الفكرية والعقلية، وانه ليس مثل هذا «الافندى». الذى يقول كلاماً كبيراً لا يستطيع هو قوله، ويتحول الانبهار إلى تمايز، فتباعد .. فإنقطاع أوقطيعة.وحتى مع تزايد عدد الافندية فى القرية بسبب زياده الموظفين الاداريين بالقرية، وأيضا بسبب أزمة الاسكان فى المدينة بما يدفع بالابناء الذين توظفوا فى المدينة ان يستمروا فى الاقامة بالقرية مترددين كل يوم على مقر عملهم بالمدينة.. حتى مع هذا يظل «الافندى» الفلاح شيئاً غير «أفندى» المدينة سواء فى علاقات القربى أو فى أسلوب الحياة والعلاقات الاجتماعية والثقافية

* وكنا فى أحيان كثيرة ننجح فى إصطياد فلاح لمّاح .. أو يحاول ان يكون كذلك ، ذكى ،و شاطر، ناصح أو نصف متعلم.. نلتقطه، نركز عليه، يصبح كادراً فلاحياً.. لكنه وبرغم إخلاصه كان وبقدر إقترابه منا يبتعد عن ترتبه

الأصلية. يلتقط الجمل من فمنا فيرددها وإن بتعطيش الجيم ونبرة فلاحيه، لكن النبرة والتعطيش لا تحل الاشكال، فتبقى الغربة حداً فاصلا بين مقولاتنا وجماهير الريف.

بإختصار رأينا الريف، تلامسنا معه، أقمنا نقاط إرتكاز محدودة فيه، إمتلكنا كوادر فلاحية ذات ثقل، فعلنا، تحركنا وتحرك معنا فلاحون، هنا أو هناك ، قلنا، كتبنا، ضحينا، بذلنا جهدنا لكننى أزعم إننا لم نستطع ان نمسك بمفاتيح فهم حقيقى، متكامل أو شبه متكامل للواقع الريفى.

ظللنا وبرغم سنوات طوال من الجهد والتضحيات - وربما لم نزل حتى الآن - نتعرف على واقع الريف عبر مساحة محدودة من الرؤيه السطحية وغير المتعمقة لمكونات العقل والفكر والتراث والهموم والعلاقات الداخلية وحدود المؤثرات الخارجية فى الريف المصرى.

أطللنا على الريف نعم، عشنا بعضاً من حياته، فهمنا بعضاً من آليات الفعل فيه، أقمنا علاقات عضوية مع بعض مرتكزاته.. لكننا لم نزل حتى الآن نعانى من مسافة فاصلة بين «الاستاذ» الذى هو زميلنا المسئول و«عم فلان» الفلاح

المقيم بالقرية..

وبين كلمتى «الاستاذ» و «عم فلان» تكمن العلامة الفارقة التى تجعل من إطلالتنا على الريف مثل محاولة للنظر من ثقب المفتاح على غرفة متسعة، ترى نعم، ولكن ليس كل شئ. تسمع نعم، ولكن ليس كل شئ..

فمتي وكيف يمكن ان نرى، ونسمع، ونفهم، ونتعلم فن التعرف على الواقع؟

وهل يمكن ان نقول اننا نستهدف فعلا جماهيرياً وعملا سياسياً وسط الفلاحين دون أن نتمهل، ونتقن فن التعامل مع قيمهم، وأفكارهم، ومكونهم الثقافى، وتقاليدهم وأسلوب تفهمهم للواقع؟

إن أشياء كثيرة تغيب عنا ونحن نتحدث فى العموميات، تاركين ما نعتقد أنه تفاصيل. بينما هذه التفاصيل هى قطع السيراميك التى تكون الواقع الحقيقى الذى يمكنه عندما يلتقى بأفكارنا ومبادئنا، أو بالدقة عندما تلتقى هى به، أن ينجح فى توليد طاقه فهم، تتحول إلى طاقة وعى، ليتولد منها فعل سياسى وتنظيمى ناجح. وبدون ذلك ستتسع المسافة بين «الاستاذ» [المسئول الحزبى]

و«عم فلان» الفلاح [المستهدف ضمه إلى الحزب]، وقد يأتى عم فلان إلينا . لكنه يأتى متحسباً، متردداً، وقد يبقى قليلا ثم يمضى ، عندما يفتقد التآلف وحرارة الفهم والتفهم المشترك، وبعد عدة جلسات قلقة لا نتقن نحن فيها فنون مخاطبته يستشعر هو «الغربة» ثم تتمدد مساحة الغربة ليجد أن حافزه لحضور الاجتماعات بدأ يتناقص فالاجتماعات مليئه بمناقشات ومشاحنات سياسية وتنظيمية تثير فيه نوازع القلق والاغتراب، وهى أيضا بعيدة عن اهتماماته وطموحاته التى يمكن القول انها غالبا ما تكون محلية وذاتية وربما ضيقة الافق ، ثم يتناقص مره أخرى مع إجتماع آخر، ثم يتلاشى..

والآن.. عن أيه تفاصيل هامة نتحدث؟

تعالوا نتأمل بعضا من مكونات صورة الفلاح التى غابت عن وعينا ونحن نأتى اليه، فغاب هو عن لقاءاتنا وعن مساحتنا:

* هناك دور كبار الاسرة فى تحديد مواقف الابناء وحتى السياسية منها. دور القرية وأثرها على إنتماء الشاب فى معركه إنتخابيه. دور القبيلة إن وجدت. دور الدين، وتحديداً

دور محتوى معين ومحدد ينتشر فى الريف لفهم العقيدة الدينية، وهو محتوى يرتبط بالغيبيات والخرافات، والنزعة القدرية التى تؤكد ان كل شئ «مقدر ومكتوب» وأثر ذلك على دعوتنا للتفكير العلمى، ورغبتنا فى تغيير الواقع، أى تغيير هذا «المقدر والمكتوب» . وإنعكاس ذلك على أساليب مواجهة الظلم، فكما لجأ المسيحيون الأوائل إلى الرهبنة، لجأ المسلمون الي الطرق الصوفية إلتى وضع أساسها الفلاح المصرى [ذو النون المصرى المتوفى عام ٢٤٥هـ - ٨٥٩م] والتى تدفع الفلاح - أساساً- إلى إلتماس العزاء والقدرة على إحتمال الظلم من طاقة روحية، وهل هى مصادفة أن يطلق الصوفيون على أنفسهم إسم «الفقراء»؟ وهل هى مصادفة أن الحركة الصوفية هى - وحتى الآن - أقوى تنظيم فى مصر؟ هل فهمنا هذه الظاهرة؟ هل إقتربنا منها ولو بما يمنحناأى قدر من الإطلال على جماهيرها التى هى بلا حصر، وهل وحاولنا أن نفهم دوافع وبواعث إتساعهم المتزايد حتى الآن؟. والمكون الفكرى لهم ، وإمكانية التعامل معهم؟

* هل تأملنا المكون الفكرى الموروث والراسخ والذى

يرسخ ويعمق حتمية الفوارق الطبقية بإعتبارها أمراً طبيعياً بل وحتمياً ولا يمكن الفكاك منه.. هذا الموروث الذى ينطق به الفلاح ربما دون وعى - «ربنا ما سوانا إلا بالموت».. «الميه ما تجريش فى العالى» .. «العين ما تعلاش على الحاجب».. «من عرف مقامه إرتاح» .. «إللى يبص لفوق يتعب» .. «لما أنا أمير وأنت أمير،أمال مين حيسوق الحمير»؟.

أو تلك التى تأمره باحترام كبار السن فى العائلة وهم عادة مايكونون الاكثر إرتباطا بالفكر التقليدى، والاكثر رفضا للجديد «إحترم كبيرك يحترمك صغيرك» .. «أكبر منك بيوم، يعرف عنك بسنه»؟ أو التى تدعوه على الاهتمام بنفسه فقط وألايتداخل فى أى شأن عام.. «خليك فى حالك، ينصلح حالك».

أوهذه التى تحضه على الاستسلام القدرى، وتقيد خطاه نحو الفعل من أجل تغيير الواقع المرير.. «بنى آدم فى التفكير والرب فى التدبير».. «اللى إنكتب على الجبين لازم تشوفه العين».. «تبات نار، تصبح رماد» «إن صبرتم نلتم وأمر الله نافذ،وإن ما صبرتم كفرتم وأمر الله نافذ»..

«اللى مـا يرضى بقـضـايا يطلع من تحت سـمـايا» إن هذا الموروث راسخ في اعـماق الفلاح .. فـهل درسنا وبدقـة كيف نحرك فـيـه مـا يتـحـرك به بـعـيداً - عن الانصيـاع لمعطيـاته السلبية، وإنعكاساته على الفعل وردود الفعل عنده. ومدى تأثير ذلك فى إستجابته لنا، ولشعاراتنا، وتحركنا نحوه؟. بل هل نجحنا فى نجمع مأثورات وموروثات دينية وشعبية إيجابية التوجه نستخدمها فى مواجهة هذا المورث السلبى، مثل الحديث الشريف «الساكت عن الحق شيطان آخرس».. وأمثلة شعبية إيجابية مثل «إيد لوحدها ماتسقفش»و.. «أنا وأخويا على ابن عمى، وانا وابن عمى على الغريب».. وحكايات من الموروث الشعبى تحض على الشجاعة فى الدفاع عن الحق وعن الجماعه وترفض الاستسلام للظلم..؟

وهل درسنا ولو بأقل قدر أثر الجديد المتمثل على سبيل المثال فى:

* الآلات الحديثه المستخدمه فى الزراعة.
* المحاصيل الجديدة.
* السفر للخارج - وخاصة السعودية ودول الخليج - والعوده بأفكار جديدة قد تكون أكثر تخلفاً وقد تكون غير

ذلك، والعـودة أيضا بثـروه [طبـعـا فى حدود فـهم الوضع الطبـقى المتـواضع لكلمة ثروة] وإنعكاس ذلك على نوعيـة جـديدة للمنزل الريفى وأثاثه، وعلى المسلك الاجتـمـاعى وعادات الاستهلاك..

* إختـفـاء الاقـتـصـاد المنزلى المعـتـمـد على تدبيـر الاحتياجات المعيشية عبر إنتاجها منزليا [الخبز - اللحوم - البـيض - السـمن - الجبن - اللبن.. الخ] وتحـول الاسـرة لشراء هذه المنتجات من السوق بما خلق حركـه تداول سلعى جديدة بين المدينة والقرية، وخلق فئات إجتماعية جديدة تنظم حركـه التداول هذه، وخلق نمطاً جديداً من الحيـاة والعـادات الاستهلاكية والسلوكية.

* اثر التعليم فى الجيل الجديد.

* اثر الاعـلام.. الاذاعـة، التليـفـزيون، الدش، الصـحف فى وعي الجيل الجديد، وفى اهتمامه بالقضايا العامه وتحوله من الانتـمـاء وفقط للاسرة والقرية إلى الوطن والعـروبة.. الخ.خاصة لان اهتـمامـه منحصـر فى متـابعة الفضائيـات العربية هذا ان اتيحت له الفرصة.

* اثر الانخراط فى القوات المسلحه بتقنيـاتها الحديثه،

وأساليب التوجيه المعنوى..

* أثر أزمة الاسكان المتفاقمه فى المدينه على لجوء الابناء الذين وجدوا عملا فى المدينة إلى الاقامة الدائمة بالقرية.

هذه كلها وغيرها عوامل لم تكن قائمة من قبل، وقد خلقت وتخلق مساحات جديدة يتعين علينا الاعتناء بها.. ولكن يتطلب ذلك منا أن نعتنى أولا بفهمها وإدراكها وإيجاد وسائل تفاهم مع أصحابها بشكل خاص، فلغة التفاهم فى الريف التى يتعين علينا إتباعها ليست فقط مختلفة نوعياً عن لغة المدينة، وانما تتنوع مع تنوع الوعى الفكرى والتعليمى والثقافى لابناء الريف ذاتهم.

* وهناك متغير هام فى القريه هو تزايد عدد الوحدات الادارية فيها [مدرسة أو أكثر - وحدة صحية - وحدة تنظيم الاسره - وحده اجتماعيه - جمعية زراعية - جمعية إستهلاكية - مكتب بريد- مساجد عده تابعه للاوقاف بما يعينه ذلك من وجود واعظ، مؤذن، خادم لكل مسجد.. الخ] بمعنى أن القرية قد أصبح فيها عديد من الموظفين الحكوميين وعديد من المتعلمين .. أى أصبح فيها عديد من الشيخ حسونه ومحمد افندى اللذين تعرفنا على ملامحهما

في روايه الارض للشرقاوى.

* كما أن نزول العمل السياسي «الرسمى» [هيئة التحرير - الاتحاد القومى -الاتحاد الاشتراكى - ثم الحزب الوطنى الآن] إلى القريه قد أتاح للفلاحين التعرف على نموذج سلبى جداً لسياسيين يتخذون من السياسه مطية لتحقيق أهدافهم ومصالحهم الشخصية. و هم يتغيرون، يتوالدون، جيلا بعد جيل ولكنهم جميعاً من ذات الصنف. وهذه الصورة السلبية تماماً للسياسة والمشتغلين بها تترسخ لتولد حالة لا نحتاج لوصفها.. اما النقيض لهذه الصورة الذى هو نحن فهو غير موجود، وإن وجد فهو شخص أو اثنان أو أكثر قليلا.. ثم هم لم يمسكوا أبداً بمفاتيح الاقتراب من السلطة فماذا لو وصلوا، وأصبحوا مثل الآخرين؟ هذا السؤال المشروع هو هاجس يقيم سداً بين الفلاح وبين سياسيين من امثالنا. وهو أمر يمكن تفهمه.

فاذا كانت التجربة تمضى عبر نصف قرن لتفرز وحوشاً، كل جيل منها أكثر نهما من سابقيه، فلماذا لا يكون هؤلاء «المعارضون» [من أى صنف كانوا] مجرد طامحين للحلول محل القائمين .. ثم يفعلون مثلما يفعل القائمون؟ ولأن

التجربة لا تكتمل دورتها بمعنى اننا لا نمسك بمفاتيح الأمر والنهى، فإن نوايانا تظل محل تشكك من جانب الفلاح.. وهو تشكك مشروع، ألم يتغير الآخرون، فكان الجديد مثل القديم وأسوأ؟

ويمكن ان نستثنى من ذلك وإن بقدر ضيئل نشاط القوى المتأسلمة فهى تدعوهم وفى بداية الأمر إلى التقرب إلى الله ليرفع عنهم الغمة [إنه ذات النهج الصوفى القديم].. فيمكنها ان تجتذب بعضهم، لكن كثيرين لا يلبثون أن يتسربوا من صفوفها.. عندما يتكشف الجانب السياسى.. أو عندما يتعرضون للضغط الحكومى.

* ولا يختلف الأمر كثيراً فى حالة الادارة المحلية.. «مجالس القرى والمراكز» يأتى رجال الحزب الحاكم فيسيطرون، وينهبون ما يمكن نهبه فيؤكدون تباعد الفلاح عن الفعل السياسى.

ولا شك أن إقتحاماً مخططاً من جانبنا لعضوية مجالس القرى بالذات، سوف يمنحنا فرصه تقديم نموذج آخر يستهدف الصالح العام وليس المصالح الشخصية لاصحابه.. فإن نجحنا فى ذلك على نطاق واسع، أمكننا أن نغير

تدريجياً صورة «السياسى» فى ذهن الفلاح.

* * *

وإذا أتينا إلى الاهتمام الآخر «العمال». نكتشف اننا بذلنا جهداً، وحققنا نجاحات هامه على المدي التاريخى والحالى، تواجدنا فى المصانع، وفى الحركة النقابية، وفى الفعل الفكرى وأتقنا فن التعامل مع الجماهير العمالية. كل هذا صحيح.

ولكن.. وهكذا نجد أنفسنا نلجأ مرة أخرى إلى كلمة «ولكن». نحن نعلم جميعا أن مصر تمر بمرحلة تحول عاصف، ولست أعتقد إننا إستطعنا أن نتجاوب مع هذا التحول بالشكل الكافى ولا حتى بشكل ضئيل.

إن حاله الاندفاع فى عملية الخصخصة قد وضعتنا أمام خريطه عمالية جديده.تتمثل فيما يلى:

* فئة تسرع بالانقراض وهى الفئه المتمثلة فى عمال القطاع العام والتى تجرى عمليات تصفيتها حثيثاً عن طريق الخصخصة والمعاش المبكر [الذى إستقطب للأسف عديداً من العمال ومن القيادات العمالية الذين تسارعوا نحو وهم المعاش المبكر. تسارعوا دون ان نهتم نحن بدراسة لماذا هذا

التسارع ولا ما هو مصيرهم.]

* فئة تعيش على هامش العملية الانتاجية الجديدة حيث تتسارع عمليه تصفيه صغار المنتجين والحرفيين ومن ثم من لديهم من عمال، تحت وطأه زحف الحديث والمستحدث والنمط الاستهلاكى الجديد.. والمنافسة الضارية من منتجات أجنبيه أرخص كثيراً من المنتج الحرفى [كمثال صناعه الملابس الجاهزه - الاحذية الخ..].

* فئه عمال الصناعات الحديثه [القطاع الخاص] والمتمركزة أساساً فى عدة مدن صناعية [١٥ مايو - العاشر من رمضان - ٦ أكتوبر - السادات - العبور - بدر... الخ] وهى فئة أكثر حداثه، ومكونه أساساً من عمال متعلمين، وذوى أجور أعلى، ولكنهم يعانون من ضغوط شديده تحرمهم من حق التشكيل النقابى أو المطالبه الجماعيه بأيه مطالب [فهم جميعا مهددون دوما بالفصل. فقبل أن يوقعوا عقد العمل يفرض عليهم أن يوقعوا إستقالة غير مؤرخة وإستماره ٦ غير مؤرخه، والتنظيم النقابى شبه محرم..]

فهل درسنا هذا الواقع الجديد ؟ وهل بدأنا فى إيجاد

نقاط إرتكاز ولو أوليه فى نقاط التمركز الجديده؟

وهل فهمنا المكون الفكرى والأسلوب النضالى المختلف لعامل أكثر تعليماً، وأعلى أجراً، ويعيش وسيف الطرد على رقبته فى ظل حالة بطالة شاملة، بمعنى انه إذا ما فقد عمله لن يجد غيره؟

وهناك كذلك حاله الكساد والركود التى يتخذها أصحاب المصانع حجة للتخلص من بعض العمالة، أو حتى لعدم صرف أجور العمال، أو تخفيضها، أو الغاء الحوافز والمزايا العينية.. وكيفية مواجهتها فى ظل التهديد بالطرد؟ بل إن بعض رجال الاعمال الذين نهبوا قروضاً هائله من البنوك ويماطلون فى سدادها يستخدمون العمال كأداة ضغط، يهددون بطردهم، بل ويدفعونهم إلى الاعتصام والتظاهر للضغط على الحكومة كى تضغط بدورها علي البنوك لتخضع لابتزازهم. فما هو موقفنا من ذلك؟

كل هذا جديد يجب ان نتقنه، ولم نفعل.

* * *

وفى مسائل عديدة نكتفى نحن السياسيون بالشعارات العامة، والتى رغم كونها عامة، تبدو وكأنها غير مهمة أو

حتى غامضة بالنسبة للمواطن العادى.

فشعار مثل «تطوير التعليم ومناهجه» قد لا يعنى شيئا على الاطلاق عند المواطن العـــادى لأنه ينظر إلى هذه الكلمات فى كثير من الأحيان باعتبارها «سياسه» وليس باعتبارها مسألة تخصه وتخص أبناءه، ولانها ومن فرط تكرارها من الجميع تقريبا، أصبحت لا تعنى شيئا بالنسبه له .. بينما مسألة تفصيلية مثل «تخفيض أو زيادة عدد سنوات الدراسة فى المرحلة الابتدائية». أو «إعتبار الثانوية العامة مرحله واحدة مكونه من سنتين» أو إلغاء التحسين.. هى التى تشد إنتباهه لأنها تؤثر فيه وفى أبنائه بشكل مباشر وعملى.

والمثير للدهشة اننا نرهق أنفسنا فى دراسات عامة قد تكون مفيدة لنا كى نتفهم الواقع، وكى نتوصل إلى مقترحات تتعلق بتطوير التعليم فعلا .. لكننا إذ نأتى إلى هذه التطبيقات التفصيلية نكتشف أننا لم نهتم بها، وحتى لم نقل فيها رأياً، لأننا إعتدنا على «الجمل العامة»، ولم نعتد علي فهم نبض المواطن العادى والتعرف على ما يلفت إنتباهه، ويجذب إهتمامه، لأنه يؤثر فيه بشكل مباشر..

وفورى . إن الاكتفاء بترديد شعارات عامة، كبيرة المعني، ضخمه الرنين فى المسائل الجزئية تجعلنا نبدو كقائد عسكرى فاشل يحاول أن يصطاد عصفوراً بصاروخ. فلا هو إصطاد العصفور، ولا كسب ميزة الصمت.

وكذلك الحال فى مختلف مناحى الحياة.. نحن نهتم بما هو عام.. وهذا غير كاف على الاطلاق، ويعزلنا فى كثير من الاحيان عن الواقع. ويجعل شعاراتنا الجميلة والصحيحة عاجزة عن التماس مع مشاعر الجماهير العادية والتأثير فيها.

* * *

ولعلى لست بحاجة إلى تأكيد جديد بأن هذا الفهم المتعمق للواقع هو خطوة ضرورية ليس فقط كى يمكن ان يتحقق التفهم والتفاهم بيننا وبين الجماهير، وانما كى يمكن تخليق فكر صائب، وساعتها سيمكننا هذا الفكر من فهم أعمق وأرحب للواقع.. وتمضى دورة التفاعل الجدلى النشطة نزداد فهما فنزداد فعلا، ومن ثم نزداد فهماً ففعلا أكثر، وهكذا دون توقف.

ومن خلال هذه الدورة نحيا، نتطور، نتقدم ، نعيش فلا

فكر ثابت ولا واقع ثابت وهذا درس آخر يفوتنا كثيراً أن نتأمله.. إذ نتصور أننا نحدد الفكر ولمرة واحدة ونبقى ثابتين عليه .ونفهم الواقع لمرة واحدة ونكتفى بذلك.

وبينما نحن ثابتون، جامدون عند فكرتنا وعند شعاراتنا الثابتة والمتجمدة وفهمنا الجامد للواقع، تجرى مياه كثيرة، يتغير الواقع، وتتغير معه وبالحتم المعطيات الضرورية لتجديد الفكر، فنزداد نحن عزلة، ونزداد إغتراباً، ونصحو لنجد أنفسنا فى وادٍ.. والجماهير فى وادٍ آخر.

وهذا هو أقسى عقاب يمكن أن يناله سياسى.

* * *

وذلك كله إن فعلناه فإنه يندرج فى باب الالتزام بالفعل «عَرِفَ» اما الفعل «عَلِمَ»، فله متطلبات أخرى قد تكون من مهام معاهد الدراسات أو مراكز الابحاث [ولابأس من أن يكون لدينا فى المستقبل مراكز كهذه] ، فهى متطلبات تحتاج إلى دراسات ميدانية، وعمليات إحصائية، وإستطلاعات رأى دقيقة، وعمليات تحليل إجتماعى [مثل دراسة أثر تعلم الفتيات علي العلاقات الزوجية، أو أثر السفر إلى السعودية ودول الخليج على الحالة الفكرية

والنفسية والزى وأساليب التعامل في حالة الرجل والمرأة كل على حدة] ، والفارق الذهنى وإنعكاساته الاجتماعية بين المزارع الذى يعتمد على إنتاج محاصيل تقليدية وهذا الذى ينتج محاصيل غير تقليديه أو محاصيل للتصدير أو محاصيل نظيفة [أى لا تستخدم المخصبات فى إنتاجها] ودور المهن الجديدة فى القرية [سائق جرار - كهربائي سيارات - موظف إدارى - طبيب ..الخ] فى حياة القرية، الأثر الناتج عن إختفاء الدور الفعلى للعمدة [إنتشار نقاط البيوليس فى عديد من القرى.. أو تعيين العمدة بمعرفة جهة الادارة بحيث يصبح فى نظر الفلاح جزءاً منها] ..تطور الحالة الصحية ونسب الوفيات فى المراحل السنية المختلفة .. وعشرات وربما أكثر من العشرات من البحوث والدراسات والاستطلاعات التى تفتح كتاب الريف وتجعله سهل القراءة

لكن ذلك سيكون [ربما] واجباً مؤجلاً.. فلا بد للفعل «عَلِمَ» ان يسبقه بمسافة الفعل «عَرِفَ».

يتكون التاريخ من نصفين. نصف جميل هو الاساطير والحكايات والأوهام، ونصف قبيح هو الحقائق. ومهمتنا نحن المؤرخين هى أن نخلص التاريخ من نصفه الجميل. وإن نكتفى وفقط بالنصف القبيح.

«ميشيليه»

عن الأسقف المنخفضة

نبكى، وأحيانا نتباكى على الأسقف التى تنخفض فتفرض علينا - أحياناً - الانحناء بشعاراتنا أو حتى أن نتحاشاها.. سعياً وراء توافق مع الواقع، قد يعتبره البعض تخلياً، بينما يتمسك البعض بواقعيته.

لكننا وعلى أية ضفة نقف نكتشف، أو بالدقة يفرض علينا أن نكتشف أن الدنيا تتغير، وأن من لا يغير الزى القديم، قد يفرض عليه إن يغير جلده، أو حتى أن ينقرض.

والحقيقة ان عملية التلاؤم مع الجديد.. أي جديد كانت دوما مشكله تعثر فيها السياسيون، البعض تجاوزها بعد عثار، والبعض توقف، تجمد ، تحايل، والبعض إعترف بضرورة الجديد، وبحتمية التجديد، لكنه ظل يعبئ ذات الشراب القديم فى آنية جديدة، والبعض إنتهز فرصة القول بالتجديد فاقام حفل «إستربتيز» سياسى ربما حظى بتصفيق

الخصوم التاريخيين، لكنه وإذ فقد عذريته المبدئية أصبح مبتذلاً، يتنصل مما كان وكأنه يستحم من رجس، ويلفق شعارات تغازل الجديد وترتمي في أحضانه دون أن تمتلك آليات تؤهلها كي تكون مثله أو حتى شبيهه به، ويكتفي بأن يتسلل إلى ساحه اليمين، كلص مثقل بسوابق إجرامية، متمنيا أن يرد له إعتباره، ناسياً أنه إنما فقد إعتباره بأفعاله الجديدة وليس القديمة. والبعض يكتفي بغلاف يساري لكنه يتخلص من الجوهر بحجة التجديد فيبدو كثمرة الفجل الافرنجي، غلافها أحمر شديد الاحمرار لكنه مجرد غلاف. لا ينم عن الداخل، أي الحقيقي.

ووسط هذا المهرجان التغييري يتمايز موقف - ربما كان الصواب - أن تتمسك بالمبدأ وبالثوابت، منتمياً في ذات الوقت إلى الواقع، ملتحفاً به، وملتزماً بالتجاوب معه.

فهل هذا صعب؟ أعتقد.. لا.

بل وأعتقد انه ما من مخرج سواه.

* * *

وهذا العالم الذي إعتدنا عليه، وعشنا زمنه وأحلامه وطموحاته يتغير فجأه.وبسرعة متسارعة، وكأن ما كان لم يكن سوى فيلم سينمائي إنتهى عرضه، ولم يبق أمامنا

سوى إن نغادر دار العرض لنواجه الواقع الجديد، كل ما كان يتبدى الآن وهماً أو حلماً، ينتهى بأن نستقيظ على واقع مرير.. لا إتحاد سوفيتى، لا منظومة اشتراكية، لا أصدقاء، لاحلفاء ، لا سند . فقط يبقى الخصم، ليصعد وحيداً على خشبه العالم معلناً وحدانية السلطة والقرار والنفوذ.. بل وحدانية الوجود.

هذا العالم ليس عالمنا الذى ولدنا وعشنا وجرى تكويننا فى إطاره. هو عالم آخر إما أن نعيشه كما هو لنسعى ومن جديد لاعادة صياغة معطياته، أو أن نعتزله فنعيش فى عزلة منعزلة حتى ننقرض كما إنقرضت كائنات عديدة لم تستطع أن تتأقلم مع التغيرات المناخيه التى أطاحت بالعالم القديم جداً ، فهل نترك أنفسنا للانقراض سياسياً بسبب عدم قدرتنا على التلاؤم مع معطيات عالم جديد؟

هذا هو السؤال الموجع؟

ولكن هل يمكن أن نتعامل مع عالم جديد دون ان نحاول فهمه أو تفهم آلياته ومحركاته؟

هذا سؤال موجع آخر، لأنناعشنا زمناً طويلاً، وربما أطول من اللازم على مطلقات إخترقت عقلنا وإستقرت فيه دون أيه قدرة على زحزحتها.. ولا أمل أمامنا سوى السعى

لتغيير فهمنا للعالم وللواقع، وان نحدد الفارق بين القانون العام [الصحيح] وبين الافتراضات [التى ربما.. وربما لا] وأن .. وأن.

ونعود للسؤال: فى أى عالم نعيش؟

ولعله من الضرورى ان نعترف بأن الاجابة صعبة، بل وبالغة الصعوبة، ليس لأننا لا نتقن أسلوب معرفه العوامل العالمية المتداخلة وانما لانها شديدة التعقيد حتى بالنسبه للمتخصصين.

* * *

ولكننا ومهما أمعنا الفكر فى تلك الشبكة المتشابكة من المعطيات فإننا لن نستطيع اللحاق سوى ببعض منها.. فهى تتداخل ما بين سياسى وفكرى واقتصادى وعسكرى و..و إلى ما لانهاية.

فلنحاول ان نلتقط بعضا من شبكة الخيوط المتداخلة، مجرد نماذج فقط لنلاحظ مدى تعقيد الموضوع، ومدى ما يحتاج من تأن وجهد حتى نتفهم هذا الواقع الجديد الذى يخيم علينا، والذى نقول - أو نزعم - بقدرتنا على التعامل معه.. دونما قدرة على إستيعاب معطياته.

إنها مجرد نماذج مثل:

* إختفت خريطة القطبين العالميين على صعيد السياسة/ الدولة، ويبقى قطب واحد يتحكم أو يحاول، وهو فى ذلك يلقى مقاومة واهنة من رعايا فى ذات معسكره القديم [الدول الاوربية - اليابان] لكنها مقاومة ليست واهنه فحسب، وانما تتعامل مع السيادة الامريكية كأمر واقع وربما كأمر مرغوب فيه، فقط تحاول أن تقلل من فعل الأنانية الامريكية وتوحشها ، وينجم ذلك ليس فقط عن تفاوت فادح فى موازين القوي إقتصادياً ومالياً وعسكرياً ومن ثم سياسياً، وإنما أيضا - وأساساً - من سيادة سطوة المؤسسات العملاقة والمتعددة الجنسية ومن هيمنتها علي المقدرات الاقتصادية فى كل من هذه المساحات المتنافرة ولا أقول المتصارعة [امريكا - أوربا - اليابان] بما يفرض محدودية أى خلاف، ويزيد مبررات الصراع فيما بينها وهناً فوق وهن. فالمال الذي يصب فى خزينه واحدة، يفرض على الجميع مصالح واحدة، أو متقاربه، أو متشابهه.

* وبرغم إختفاء القطبين الساسيين على صعيد الدولة [معسكر إشتراكى معسكر رأسمالى] يتبقى نوع آخر من الصراع الفكرى [يمين. يسار] . وبرغم ان هذا الصراع الفكرى قد يتبدى أحياناً على المستوى العالمى وفى إطار

دول عديدة وكأنه مزاح ثقيل ولا مبرر له، ولا مستقبل أمامه، فالمستقبل فى نظر البعض قد تحدد يميناً، إلا انه ينعكس وبقسوة لا تعبأ بالمزاح فى صناديق الانتخاب، لتصعد إلى سدة الحكم أحزاب «يسارية» فى عديد من الدول الاوربية ، غير أن ظاهرة بروز «اليسار» عبر صناديق الانتخاب تفرض علينا وبقسوة شديدة أن نلاحظ ملاحظتين مؤلمتين، كثيراً ما نحاول تجاهلها بحثاً عن بارقة أمل، حتى ولو كانت زائفة، أو بالدقة شبه زائفه.

أولى الملاحظتين هى أن ما نسميه نحن اليوم يساراً ونسكب على أنفسنا مساحات من السعادة بفوزه، هو ذاته ما كنا نسميه بالامس إنتهازية وخيانة وعمالة ويسارية زائفة .. ولكننا الآن نتقبله مبتهجين - ونحن على حق - لانه مجرد «أحسن من مفيش»، أما أن ننزلق فنعتبره يساراً حقيقياً فهذا خطأ وخطر أو هو فى أحسن الإحوال مزاح ثقيل يأتى فى موضع الجد. خطأ لأنه لم يكن ولن يكون يساراً حقيقياً، وخطر لأنه يغرى بالمماثلة، أى بأن ننزلق خطوة خطوة كى نلحق به فى موكب انتصاراته.

أما الثانيه فهى سؤال شديد الوجع لماذا يكسب هؤلاء اليساريون المعتدلون [الأنتهازيون والعملاء سابقا] أصوات

الناخبين [وفى بلاد ذات مستوى سياسى وثقافى يعرف الفارق] بينما يهزم اليسار «المتشدد» أو الحقيقى، أو حتى غير المتهادن؟ [والنماذج عديدة: فى فرنسا فارق القوة بين الحزب الاشتراكى والحزب الشيوعى، إيطاليا الفارق بين حزب اليسار الجديد وهو الانقسام الذى إستوعب القسم الاكبر من عضوية الحزب الشيوعى الايطالى، وبين ما تبقى فأسمى نفسه الحزب الشيوعى الايطالى إعادة التأسيس، الاول يحصل على ما يزيد عن ثلاثين ضعفاً من أصوات الناخبين التى يحصل عليها الثانى وشكل حكومة حكمت إيطاليا لفترة من الوقت. وكذلك الحال فى روسيا، الفارق هائل بين قوة الحزب الشيوعى الروسى (زيجانوف وهو حزب معتدل بل وشديد الاعتدال) وبين القوي والاحزاب المتشددة] ما هو السبب فى هذه الظاهرة التى توشك أن تصبح قانوناً بسبب تكرارها عالمياً ومحلياً؟

هل فقدت الجماهير الثقة فى الشعارات العالية النبرة، والمواقف المتشددة؟ فإن كان الامر كذلك، فما هو السبيل كى نجد لانفسنا سبيلا وسطاً أو محكماً بين التشدد المشدود إلى ماضٍ إنتهى، والتفريط الذى يفرط فى كل المحتوى ويغتسل منه وكأنه يتبرأ من كل تماس مع الماضى.

ثمة خيط وسط، نفتش عنه، ونمسك به كطوق نجاة. ولا سبيل آخر. إلا الانقراض أو التفريط.

ذلك التفريط الذى قد ينعكس علينا فى كثير من الحالات إذ نتوهم قيام قطبين فكريين فى أوربا مثلا [يمين ويسار] بينما الحقيقية هى أننا إزاء قطب واحد [يمين، ويمين وسط أو فى أحسن الاحوال يسار وسط] أى قطب واحد رأسمالى بلهجات وأزياء قد تختلف فى الشكل.. وليس الجوهر الجوهرى.

أما الماركسيون الحقيقيون وهم لم يزالوا قوة لا بأس بها فى هذا العالم، فهم مطالبون بأن يتقدموا ومن جديد بأوراق إعتمادهم وفى إمتحان عسير جداً إلى جماهير شعوبهم. فالامر ليس سهلا، لم يكن. ولن يكون.

وأمامهم أسئلة شديدة التعقيد يتعين الاجابه عليها من قبيل الاستعداد لهذا الامتحان العسير..

* ثمة سؤال أولى سخيف ويبدو تافهاً لكنه من فرط سخافته يتحول إلي لغز كبير.. السؤال هو: ما هى الماركسية؟

تحديداً كيف نمسك بها؟ فى الأديان نعرف الحدود: الاسلام تعاليمه محتواة فى القرآن والسنة، المسيحيه

تعاليمها متضمنة فى الاناجيل الاربعة ورؤيا يوحنا وقرارات مجمع نيقية.. لكن ماذا عن نظرية علمية وعلمانية؟ كيف نحدد حدودها؟ وكم من المخطوطات إن وضعناها جنبا إلى جنب قلنا: هنا الماركسية؟

هل كل كتابات ماركس وانجلز، لينين، ستالين [«ربما» عند البعض، «وليس» عند البعض الآخر]، وتروتسكى [عند البعض فقط] ثم من تلاهم من توريز وتولياتى حتى كاسترو، جيفاراً، كيم إيل سونج، ماو، هوشى. إلى آخر سلسلة لا تنتهى. هل هذا كله؟ وماذا عن تناقض هذا مع ذاك وهو كثير؟ وماذا عن المتروك. والمنسوخ؟ [ألم يفعلها ماركس وانجلز؟ فبعد أن كتبا سفراً ضخماً أسمياه «الايديولوجية الالمانية» تركاه كما أكد انجلز لقرض الفئران، ثم ألمَ يكتب انجلز بعد سنوات من الطبعه الاولى للبيان الشيوعى.. إن به فقرات وعبارات لم تعد صالحة] فإذا كانت الكتابات الماركسية دواءً لعلل المجتمعات فإن بعضا منها قد إنتهت مدة صلاحيته، والدواء الذى إنتهت صلاحيته يضر متعاطيه. فكيف نفرز هذا الدواء عن ذاك؟

وبعد تأمل متعمق سنكتشف أن العمود الفقرى

للماركسيه هو مجموعة من القوانين العامه [وعلينا ان نفرق بين القـوانين العـامـه والافـتـراضـات، وأيضـا بينهـا وبين الصياغات الأدبية التى قد ترد فى كتابة لقائد ماركسى، فنبهر بها ونلتقطها ونتمسك بها كأيقونة دينية المحتوى، ثم نكتشف انها ليست أكثر من عبارة وردت عرضاً فى حديث عن حالة بذاتها، فى بلد بذاته، وفى زمن بذاته، وانها غير قابلة للتكرار .. أى أنها ليست قانوناً عاماً] لكن القوانين العامه مجرد هيكل عظمى لابد له ان يكتسى برداءٍ من الواقع المعاش. والواقع يتغير زماناً.. ومكاناً أى أن:

القوانين العامة + الواقع الاوربى+ القرن ١٩لا يمكن أن = القوانين العامه + الواقع الاوربى+ القرن٢١.

كذلك: القوانين العامه + الواقع الفرنسى لا يمكن أن = القوانين العامه + مصر أو+ جيبوتى .. الخ

خلاصة الامر ان كل معادله سوف تفرز لنا شيئا مختلفا، بمعنى أن هناك زمان+ مكان+ واقع = ماركسيه مختلفة.

وكان وجود «الفاتيكان» السوفيتى حاجزاً قهرياً يفرض التماثل علي غير المتماثلين، فكان ذلك أحد أسباب الكارثة.

* وثمة مسألة أخرى.. أخيرا إقتنعنا ان الاشتراكية

كمحتوى يناصر العدل الاجتماعى وينشد النهوض بالانسان يجب ان تلحتم بالديمقراطية فتمنح الانسان خبزاً، وزبداً ،وحرية وديمقراطية معاً.

ولكن إذا كانت الديمقراطيه تعنى الرأي والرأى الآخر، والتعددية الحزبية، وتداول السلطة، واذا كان من الضرورى أن نقبل بذلك، وان يكون هدفنا فعلا [وليس بمجرد الشعارات] إقامه مجتمع اشتراكى تسوده الديمقراطية.. فماذا عن النموذج التالى وهو طبيعى تماماً:

حزب إشتراكى [إشتراكى حقاً وليس قولا] يصل إلى السلطة عبر الانتخابات يطبق برنامجه كاملا: تأميم الصناعات والبنوك والاراضى الزراعية والعقارات. ثم تمضى سنوات أربع هى مدة الدورة الانتخابية ليفشل الحزب فى الانتخابات، ويأتى حزب يمينى فيلغى التأميمات فتعاد المصانع لاصحابها وتنتزع الارض من مالكيها الجدد لتعود لمالكيها القدامي. ثم، يعود الحزب الاشتراكى للسلطه فيؤمم.. ثم العكس.

فأى بلد وأي إقتصاد يمكنه ان يحتمل أن يركب هذه الارجوحة، كل شئ سيدمر عبر هذه الارجوحة.

ولهذا.. فهل لنا ان نتخيل مخرجاً؟ مجرد تخيل نتركه

لتأمل وحورات وإفتراضات يتعين عليها أن تتراكم معه وفوقه.

الحزب الاشتراكى يأتى للسلطه فيتقدم خطوتان أو مجرد خطوة فى مجالات العدالة الاجتماعية، فإن فقد السلطة يأتى الآخرون ليتراجعوا ولو قليلا، إذ سيكون من الصعب عليهم ان يتراجعوا عن كل ما إتخذه اليساريون من إجراءات، فالجماهير سوف تتعلق ببعض منها على الاقل، ثم يعود الحزب الاشتراكى ليتقدم فيراكم فوق ما تبقى مما أنجز فى السابق بعضاً من إنجاز جديد.. وهكذا نمضى عبر فترة إنتقالية طويلة الأمد، وربما طويلة جداً.

هذا نموذج إفتراضى لكنه قد يكون منطقياً وهو تجسيد نموذجى لفكرة «الاسقف المنخفضة»

ولقد يحاول البعض أن يوحى لنا بميلاد حركة عالمية جديدة تجسد جنينها فى سياتل ثم فى تداعياتها فيما بعد، ولقد يكون لهذه الحركة الجماهيرية ضجيجياً وتأثيراً معنوياً بل وحتى مادياً..

ولكن هذه الحركات ما فوق الحزبيه [أى التى تتكون من أفراد وجماعات صغيرة متناثرة تتجمع عبر شبكة الانترنيت، لا يمكنها ان تمتلك القدرة على التغيير الفاعل،

فهى لم تزل فى حاله جنين لم تتشكل ملامحه بعد، ولم تزل مجرد مجموعات من أفراد، لا برنامج عام ومتكامل لهم، فقط نقطه أو نقطتين، وفيما عدا ذلك تطحنهم خلافات حادة، ولاوعاء تنظيمى لهم، فقط ترتيبات تتم عبر شبكة الانترنيت.. إن هذه الحركه تشبه مجموعات من قطع غيار متناثرة لسيارة جديدة، وهى قطع غيار سليمة ومتينة وجيدة الصنع [ربما نعم، وربما لا] لكن طالما بقيت متفرقة فلا فى التحرك الفعلي أماما، لابد من تجميعها تجميعا محكما فى شكل سيارة [عمل منظم ومنتظم وتنظيمى] كى يمكن التحرك أماماً بإختصار هذا الشكل النضالى الشبكى [أى شبكه من أفراد أو جماعات تتلاقى عبر دعوات من الانترنيت دون وعاء حزبى أو تنظيمى] هو حد أدنى، هو بالتحديد تجسيد تنظيمى لفكرة «الاسقف المنخفضة» وتتضح هذه الحقيقة إذا ما قارناه بمنظومة الاحزاب الماركسية العالمية التى كانت تتحرك ككتيبة واحدة، بشعارات موحدة، وتحت قيادة موحدة [الحزب السوفيتى] ونحو أهداف موحدة، وعبر التمسك بأيديولوجية موحدة..

والآن هل إتضح الفارق الذى أنجب سقفاً سياسياً ثم سقفاً تنظيمياً منخفضاً؟

* * *

ثم نأتى إلى إيضاحات عبر واقعنا العربى ولنأخذ القضية الفلسطينية كنموذج.

فى عام ١٩٤٧ رفض العرب - بإستثناءات يسارية قليلة جداً - قرار التقسيم الصادر عن الأمم المتحده معلنين أن أرض فلسطين هى جميعاً للفلسطينين. ولسنا نجادل الآن فى مدى صحة هذا الرفض.

فقط نذكر أن هذا كان السقف العربى.

ثم هزمت الجيوش العربية فى الحرب - لسبب أو لآخر- وهنا بدأ السقف يتململ.

البعض ظل متمسكاً بذات السقف، والبعض - وكانوا كثيرين ومنهم أغلب القوى اليسارية - رفعوا شعاراً جديداً هو «دوله علمانيه علي أرض فلسطين لكل سكانها العرب واليهود على قدم المساواة» [وهذا سقف منخفض بالنسبه للموقف الاول].

ثم كانت حرب ٦٧ وإحتلال اسرائيل للضفة الغربية بأكملها، وغزه، وكامل القدس أى أصبحت تحتل كامل الارض الفلسطينية التاريخية.. وهنا تعلقت مطالب العرب وطموحاتهم[الغالبية الساحقة من العرب مواطنين وقوى

وأحزاب] بشعار جديد هو تنفيذ قرار٢٤٢ الصادر عن مجلس الامن والذي ينص على ضرورة «إنسحاب إسرائيل من أراض محتله بعد حرب ١٩٦٧». وتركز الصراع الكلامى بين العرب [فى غالبيتهم الساحقه] وبين إسرائيل ومسانديها فى الغرب حول كلمة «أراض» كما وردت فى النص الانجليزى وليس فى النص العربي أو الفرنسى. وهل تعنى الانسحاب من «كل الأراضى» المحتلة خلال الحرب، أم من مجرد «أراض» بما يعنى الاعتراف بحق اسرائيل فى ضم بعض من هذه الاراضى. [وكان مجرد القبول الشبه إجماعى بتنفيذ قرار ٢٤٢ هو قبول بسقف منخفض. مع ملاحظه ان عبد الناصر والاسد وكل القوى اليسارية والتقدمية تقريبا قد قبلت به بل وناضلت من أجله وجعلت منه أملا منشوداً]

وترافق مع هذا القبول.. القول بشعار حظى بشبه إجماع أيضا وهو «دولتين لشعبين» [وكان هذا أيضاً سقفاً منخفضاً].

وتقع تداعيات عديدة.. ثم يلتقى الانحناء العربى مع إنهيار المعسكر الاشتراكى ليفرض حالة جديدة من قبول سقف أكثر انخفاضاً وهكذا.

* * *

ولكن ماذا عنا نحن؟

ولأن الحـــديث عن فكرة الاســـقف المنخـــفـــضـــة وتطبيقاتهاالعملية قد يطول ، وقد يتشعب فأننى أفضل أن ألجأ إلى طريق مختصر لطرح الفكرة..وسنتخذ من برامج حزب التجمع المتتالية نموذجاً تطبيقياً لهذه الفكرة. ونبدأ بأن نتصفح معاً البرنامج السياسى العام للتجمع الذي أصدره المؤتمر العام الاول [١٠ - ١١ابريل ١٩٨٠] ، سنقلب معـا صفحات البرنامج وندون بعض الاقتباسات، ثم نتأملها لنرى مدى ملاءمتها للاستمرار خضراء يانعة فى حديقة الفكر والفعل التجمعى.

لنقرأ معا:

* إن الثـورة المصـرية الآن لا تقف عند حـدود الثـورة الوطنيـة التـقليـدية، ولكنهـا تتـخذ فى نفس الوقت طريق التحول الاشتراكى. وهى تتهيأ منذ فترة لاستكمال الشروط الذاتيـة والموضوعـيـة اللازمة لهذا التـحول فى طبيعـتهـا. [ص٣٠].

* إن ظروف مصر الموضوعية ناضجة لاستكمال الثورة الوطنيـة الديمقـراطيـة والسـيـر في مـرحلة الانتـقـال إلى الاشتراكية. [ص٤٦]

* تجاوزت الثورة المصرية حدود الثورة الوطنية الديمقراطية التقليدية وبدأت مرحلة جديدة مع التطور والنضج الاجتماعى لثورة ٢٣ يوليو، تتزواج فيها مهام إستكمال الثورة الوطنية الديمقراطية بمهام الانتقال إلى الاشتراكية .. إن الثورة المصرية تمر بمرحلة إنتقال تواجه مهاماً ذات طبيعة مزدوجة ، وطنية ديمقراطية ، وإشتراكية. [ص٤٩].

* فالثورة المصرية تتحمل فى هذه المرحلة مسئولية القيام بإنجاز تاريخى ذى طبيعة مزدوجة ، فهى من جهة مطالبة باستكمال ما بقى من مهام الثورة الوطنية الديمقراطية، وفى نفس الوقت عليها أن تدعم الاختيار الاشتراكى للشعب المصرى وأن ترسى القاعدة المادية والروحية لمرحلة الانتقال إلى الاشتراكية. [ص٥٧].

* ومن المهم ونحن نحدد طبيعة المرحله الثورية الراهنة أن نتفق على الحقائق التالية:

إن هذه المرحلة تتضمن مهاماً أساسية ذات طبيعة وطنية وديمقراطية ولكنها تتداخل مع مهام أخرى أكثر تقدمية وذات طبيعة إشتراكية. ولم يعد من الممكن الفصل التعسفى بين هذه المرحلة الأخيرة من الثورة الوطنية، وبين المراحل

الأولى للانتقال إلى الاشتراكية طالما أن القيادة فى كل منها يجب أن تكون إشتراكية. [ص٥٧].

* إن الاشتراكية العلمية هى كما جاء فى الميثاق الوطنى «الصيغة الملائمة لايجاد المنهج الصحيح للتقدم» و «إن الحل الاشتراكى لمشكلة التخلف الاقتصادى والاجتماعى فى مصر وصولا ثورياً إلى التقدم لم يكن إفتراضاً قائماعلى الانتقاء الاختيارى، وإنما كان الحل الاشتراكى حتمية تاريخية فرضها الواقع وفرضتها الآمال العريضة للجماهير كما فرضتها الطبيعة المتغيرة للعالم فى النصف الثانى من القرن العشرين».. [ص٨٥]

* ان التجمع ليدعو كافة القوى الوطنية والتقدمية والوحدوية فى بلادنا للانضمام إلى صفوفه والنضال معاً، ليس فقط من أجل أن نستكمل معا مهام ثورتنا الوطنية الديمقراطية ذات المضمون الاجتماعى التقدمى، وذات الافق الاشتراكى الرحب ، وإنما أيضا من أجل ان نكتشف معاً معالم طريق شعبنا إلى الاشتراكية والبناء الاشتراكى. [ص٢٦٨].

* يتعين بذل جهد خاص لإقامة أوثق صلات التعاون والنضال مع الاتحاد السوفيتى ومجموعة البلدان الاشتراكية

بوصفها حليفاً أساسياً لشعبنا. [ص٢٦٤].

وفى مجال آخر يقول البرنامج:

* الدور القيـادى للقطاع العـام.. فلم يعد يكفي وجود قطاع عـام يكون أداة تنفيـذ خطة التنميـة .. وإنما يجب التأكيد علي الدور القيادى للقطاع العام فى تحقيق التنمية الجادة والشاملة وفى تعزيز المكتسبات الاجتماعية التقدمية - [ص١٢٦].

* ان قيـام القطاع العـام بدور القائد فى عملية التنمية يتطلب المحافظة على بنيته الهيكلية من الشركة المنتجة فى قاعدة الهرم إلى المؤسسة العامة فى قمته. [ص١٢٧].

.. نتـأمل الاقتبـاسات السابقة ونقارنها بالشعـار الرئيسى الذى أقـره المؤتمر الرابع للتجمع «المشاركة الشعبية».و..فقط

ولقد يتصور البعض منا وربما أغلبنا - بفضل فضيلة النسيان - ان شعار «المشاركة الشعبية» إختراع جديد أدخل على أدبيات التجمع، وهذا غير صحيح..

فـفى ذات برنامج المؤتمر الاول تحـدد أهداف الحـزب والشعب كما يلى:

* ناضل الشـعب العـربى فى مصـر منذ بداية ثورته

الوطنية الديمقراطية من أجل أهداف ثابتة ومحددة. ثم ويورد البرنامج عدداً من الاهداف منها:

- تصفية العلاقات الاجتماعية والانتاجية الاستغلالية المنتمية إلى مراحل اجتماعية سابقة والتى تعوق تطور المجتمع..

- المشاركة الشعبية فى إدارة وتسيير البلاد.. [١٩]

فما الذى دفع التجمع إلى طي صفحة الواجبات والاهداف المباشرة الأخري - وإن مؤقتاً - ودفعة إلى الاكتفاء بتسليط الضوء على أكثرها تواضعاً .. «المشاركة الشعبية» ؟.

وما الذى دفعه إلى أن يتجاوز أفكاراً كانت متألقه فى زمانها مثل المهام المزدوجة للمرحلة الثورية، ومهام إستكمال مهام الثورة الوطنية الديمقراطية والسير فى مرحلة الانتقال الى الاشتراكية؟.

وما الذى دفعه إلى أن يعتبر ان هذا « السير فى مرحلة الانتقال إلى الاشتراكية» قد أصبح مؤجلا ؟

وهنا أرجو ان نتأمل ونتأنى ونتمهل لنسأل: هل كان اللجوء إلى سقفٍ منخفضٍ جداً بالنسبة «للانتقال الى الاشتراكية» سقف «المشاركة الشعبية» إختياراً إنتقاه من

بين إختيارات أخرى؟

وهل لو أن التجمع كان أكثر جماهيرية وأكثر حماساً وأكثر ثورية وأكثر نشاطاً وأكثر.. أى شئ آخر..كان بإمكانه ان يفرض الآن .. أقصد اليوم، مقولة «تزاوج مهام إستكمال الثورة الوطنية الديمقراطية بمهام الانتقال الى الاشتراكية»؟. وأن يقوم فعلا بتحقيق أي شئ جدى فى ساحتها؟

وهل كان التجمع سيصبح أكثر ثورية، أو حتى أكثر إقتراباً من الصحة لو أنه تمسك بهذه المقولات السابقة وصمم على أن ينص عليها فى برنامجه الجديد؟ أو حتى لو قرر أن كل شئ فى برنامجه القديم على ما يرام، وأن عليه فقط يتمسك به كاملا، وأن كل ما يحتاجه هو أن يكون أكثر عناداً، وتصميماً وحرصاً على مواقفه القديمة،؟ وان المطلوب منه فقط هو مزيد من الثورية، وعدم التراجع، والعمل الجماهيرى، والالتحام بالجماهير ودعم الحزب.. الخ؟

وأجيب منتظراً أجابة الآخرين لعلها تكون أفضل من إجابتى.

- لعل التجمع يمتلك أخطاءً سياسية ونواقص تنظيمية، ولعل من واجبه أن يكون أكثر تماساً مع الجماهير، وأكثر

إلتزاماً بها، وأكثر فعلا فى مجال توسيع قاعدة الحزب الجماهيرية.. الخ

لكن ذلك كان سيغير قليلا من رتوش الصورة الحالية. وسيغير بقدر أكبر من قدرته على مواجهة متطلباتها ومتطلبات مواجهتها.

ولكن هل كان - ومهما كان جهده وفعله- قادراً على أن يوقف عجلة التردى التى داهمت الجميع؟ ذلك التردى المعقد والمركب والذى تمادى عالمياً، وتماهى إقليمياً؟ ثم إمتد وإنعكس وتعمق محلياً؟

ذلك التردى الذى كان دعامة قوية للخصوم المحليين فى سعيهم الحثيث نحو الانتكاس ، والذي مثل عقبة حقيقية - لم يصنعها التجمع أمام قدراته ومقدرته على المواجهة ، بل وحتى إمكانية طرح شعاراته السابقة بشكل مقبول أمام الجماهير.

وهل ننسى أن المتغيرات العالميه الصاعقه والساحقه لم تغير فقط موازين القوى، وانما أثرت وبشكل كبير ومأساوى على العقل والمنطق وأسلوب التفكير وإمكانيات الانصات الجماهيرى لقوى التغيير اليسارى. أليست هذه القوى مخلفات عصرإنتهى فى نظر البعض؟

وأكاد أقول انه لولا طبيعة التجمع المتسعة التكوين، ولولا قدرته الفائقة والشجاعة على التلاؤم مع معطيات الجديد، لكان حزب التجمع قد إندثر أو أوشك تحت وطأه صحراء قاحلة من شعارات مجدبة خالية من نبض الواقع، ومن أى تقبل جماهيرى . وليس هذا إستنتاجاً، فقد فعلها البعض فإنقرضوا وتبعثروا- ولا أقول إنقسموا- وهوما لا يرضاه التجمع لنفسه.

فهل يرضاه أحد له؟ لا أعتقد.أن صديقا يرضاه له. وانما الاعداء فقط.

* * *

وفى حالات كثيرة جدا لا يكون القبول بالسقف المنخفض أو حتى السعى نحوه إختيارياً، وانما نجبر على ذلك بسبب تغير المناخ أو تغير أحد أطراف المعادلة، وإفتقاد توازن متوازن للقوى بحيث يفرض علينا فرضاً ان نقبل المتاح وليس المأمول.

باختصار تتجلى فكره السقف المنخفض ليس فقط على أساس القبول بالممكن والمتاح، وانما على أساس ينشأ من تفاوت موضوعى بين ما هو «حق» وما هو«ممكن».

وهذا التفاوت تطرحه الحياة دوماً، سواء فى العلاقات

الشخصية، أو العلاقات بين الجماعات وبعضها البعض، أو حتى علي الساحة الدوليه.

وفكرة التفاوت بين ما هو «حق» وما هو «ممكن» ليست فقط مرتبطة بتوازنات قوى تفرض على البعض [الطرف الاضعف] القبول بما لم يكن يقبل، أو حتى القبول بأقل من حقه الطبيعى، وإنما هى مرتبطة بعوامل عديدة قد تختلف باختلاف المسأله محل الخلاف.. فقط نتأمل مسائل مثل الاكراد فى العراق، حقوق سكان جنوب السودان، حقوق مسلمى البوسنه والهرسك، حقوق بعض الدول الاوربية إزاء الاتحاد الاوربى، حقوق دول العالم الثالث إزاء الجات..

وفى مصر مثلا: حقوق الاقباط، الانتخابات البرلمانية، العمل النقابي وعشرات.. مئات .. آلاف الحالات يجرى التوافق فيها وحولها على أساس القبول بالتفاوت بين ما هو «حق» وما هو «ممكن».

وهذا كله قبول - ربما دون أن ندري - بفكره الاسقف المنخفضة.

وقبل أن أختتم، أريد فقط أن أسجل أن البعض قد ينتهز هذه الفرصة ليبرر تساهلاً، أو تنازلاً، أو حتى تخلياً عما هو

حق، أو حتى ما هو ممكن. وهذا غير مقبول وهو غير مبرر.

ففكرة الاسقف المنخفضه لاتقوم على أساس ان نبحث نحن عنها، بل أن تبحث هي عنا، الواقع يفرضها، فلا يكون أمامنا، وأمام العقل والمنطق والتلاؤم مع الواقع الا أن يتقبلها او بالدقة يجبر على تقبلها، وإلا فاننا سنكون كمن يأتي إلى عالم اليوم .. مرتدياً طربوشاً. او أن نسير في مناخ بارد جداً وممطر ونحن نرتدي شورتاً أو حتى مايوه.. فلا يملك الآخرون إزاءنا سوى السخرية.

إن بإمكاننا أن نفرض مواقفنا وشعاراتنا القديمه على أنفسنا وأوراقنا.. لكننا لا يمكن أن نقنع بها أحداً ما لم تكن مقنعة فعلا، ومتماشية مع الواقع الواقعي فعلا. فإن تعلقنا بالقديم رغم أنف الواقع .. كان علينا ان ندفع الثمن عزلة، وإنزواءً، وتقوقعاً.. فإنقراضاً وهذه ليست شجاعة ولا ثورية ولا تمسك بالموقف المبدئي، وانما هي مجرد لغو، فما من قيمة لشعارات غير مثمرة.. جدباء لا تقنع أحداً، ولا تجذب أحداً إلى صفوفنا. ونعيش بها في غربه مفتقدين دفئ القبول الجماهيري.

سوف تأتى الحكمة حتماً إذا ما أخذت
من الآراء المتضاده كل ما هو صائب.

الفيلسوف السكندرى كليمنت [القرن الثاني الميلادى].

عن التناقض المتداخل

ونبدأ أولا بتأمل عدد من التعريفات لكلمة تناقض لعلها تسهم فى فهم أكثر عمقاً للموضوع.

* «التناقض هو إختلاف القضيتين بالايجاب والسلب بحيث يقتضى صدق إحداهما كذب الأخرى، كقولنا زيد إنسان، زيد ليس إنسان

«الجرجانى»

* «الأشياء متناقضة فى ذاتها»

«هيجل»

* يقول هيجل «إن فحص أى شئ يبين أنه فى تطابقه مع ذاته مباين لذاته، وفى تناقض مع ذاته، وأنه فى تباينه وفى تناقضه متطابق مع ذاته» ومعنى ذلك ان الشئ هو ذاته ونفى ذاته، ونفى نفيه.

د. مراد وهبه «المعجم الفلسفى»

* «التناقض - علاقة داخلية بين ما للشئ أو العملية من نزعات وجوانب، يتداخل أحدهما مع الآخر وينفيه فى الوقت ذاته.. ويأتى التناقض فى صورة وحدة وصراع الأضداد.

وليس ثمة شئ غير متناقض داخلياً. ويعود هذا إلى أن الاشياء كلها تتغير وتتطور باستمرار، فتظهر فيها جوانب جديدة، فتصير- رغم محافظتها على وحدتها - منطوية على نزعات متناقضة داخلياً..، والتناقض هو مصدر كل حركه وكل تطور.

المعجم الفلسفى - دار التقدم - موسكو

ومن ثم نكتشف ومنذ الوهلة الأولى أن هناك فهماً شكليا ومبسطا للتناقض باعتباره مجرد إختلاف بين صحيح وخاطئ «بحيث يقتضى صدق إحداهما كذب الاخرى» [الجرجانى] بينما هناك فهم علمى مركب وجدلى يرى ان التناقض كامن فى الشئ، وإن التطابق والتباين متداخلان فى ذات الشئ، وإنه يتخذ شكل علاقة داخلية بين ما للشئ أو للعملية من نزعات وجوانب بحيث « يتداخل أحدهما مع الآخر وينفيه فى الوقت ذاته» [المعجم الفلسفى].. وانه مصدر كل حركه وكل تطور.

ونحن عندما ندرس ظاهرة التناقض المتداخل، انما نتأملها في ضوء هذا الفهم العلمى والجدلى لكلمه تناقض ، أى أن تتناقض مع الشئ وتتداخل معه وتنفيه فى الوقت ذاته.. أو إن شئنا إستخدام النسق الفلسفى للأمر فإن «الشئ اى شئ هو ذاته، ونفى ذاته، ونفى نفيه» [د. مراد وهبه].

فالتداخل لا يعنى الاستسلام للآخر، وإنما هو أمر طبيعى ينتج من تفاعل الأضداد معاً، وما من أضداد تتفاعل معاً، أو حتى تتصادم معاً دون أن يؤثر إحداهما فى الآخر سلباً أو إيجاباً

* * *

هذا عن الفلسفة فماذا عن الواقع؟

مهما تجولنا فى الواقع سنكتشف بصمات هذا التناقض المتداخل القائم على أساس تناقض الاضداد بينما يؤثر كل منها فى الآخر ويؤثر فيه..

والحقيقة ان المصريين هم أساتذة فن التناقض المتداخل. فهم على مدى التاريخ يأتيهم غزاة، فيتناقضون معهم، يقاومونهم، ثم يستوعبونهم، وتتحول حالة الاستيعاب الى حالة من «التمثل». و«التمثل الغذائى» هى عملية بيولوجية.. أن «تأكل» ثم «تهضم» ثم «تتمثل» فيتحول

هذا الجديد الذى هضمته إلى عنصر مكون لك، متكون بك، ليمنحك طاقة جديدة وتحوله أنت إلى شئ جديد بعد أن يندمج معك فيمنحك جديداً هو أيضاً.

وعملية «التمثل» للآخر أو العدو هذه رصدها باحثون كثيرون لعل أشهرهم هو د. جمال حمدان عندما تأمل موقف المصريين من القادمين عبر أزمنه عديده: اليونان، الفرس، العرب، العثمانيون، المماليك... الخ مصر تمثلت هؤلاء جميعا علي مر الزمان، وبهم ومنهم وبتناقضها معهم أصبحت هى مصر التى نعيشها ونعرفها.

.. وهكذا أكدت مصر مصريتها عبر عمليات تناقض متداخل مستمرة

.. سنحاول ان نلتقط هنا بعض خيوطها .. كنماذج ، مجرد نماذج للايضاح، فمثلا:

* نقرأ لرفاعه رافع الطهطاوى «تخليص الابريز فى تلخيص باريز» ونكتشف إنبهاره وتأثره الشديد بالفرنسيس، لكنه يؤكد فى ذات الوقت رفضه لبعض ما يفعله ويقول به الفرنسيس، لأن الأخذ «بكل ما يقوله الفرنسيس لمجرد التقليد هو محض موالسة» وهذا الازهرى

الذى كان وحيداً في باريس إستطاع أن يؤثر فى أساتذته، ولفت نظرهم الى ضرورة تفهم الحضاره المصريه.. والاسلاميه. ويتضح هذا جليا في كتابات أستاذه الباريسى «جومار».

* وعلي المستوى المجتمعى تنافس التجار الذين تكاثروا فى مصر منذ عصر سعيد فإسماعيل منافسه شديدة وغير عادله مع التجار المصريين. [كان التجار الاجانب أكثر مهارة، ولا يدفعون ضرائب، ولا يخضعون لأى ضوابط قانونية إلا عبر قناصلهم الذين كانوا دوماً متواطئين معهم، وكانوا يمتلكون مقومات إستيراد السلع الجديدة ويتاجرون فيها بمهارة لم يعتد عليها التجار المصريين. تناقضت الجماعتان تناقضا حاداً، وإستخدم كل شئ فى المعركه حتى «الدين» «والروح الوطنية» [فيما بعد رفعت شعارات حاسمة لمقاطعة التجار الاجانب والسلع الاجنبية] لكن المدى التاريخى إكتشف تداخلاً عبر التناقض. التجار المصريين تأثروا بالاجانب، أصبحوا إلى حد ما مثلهم، وفى أحيان كثيرة شاركوهم، وكذلك تأثر التجار الاجانب بالمصريين. فتغيرت نوعيا السلع التى يتجارون فيها وإتخذوا وسائل

وأدوات ومهارات نقلوها عن المصريين. وفيما بعد وبعد عده عقود ظهر نوع جديد من التجار هو ثمرة لهذا «التناقض المتداخل».

* كذلك الحال بالنسبة للعمال المصريين والعمال الاجانب الذين تكاثروا فى ساحة الصناعات والحرف المنتشرة فى المدن المصرية، تجاورت المجموعتان معا، إمتاز العمال الاجانب بمهارات وتقنيات أكثر تقدماً، وإمتازوا بالامتيازات الاجنبيه، وبالمكون الفكرى الحديث، والخبره الحديثه للنضال العمالى [نقابات، اضرابات ، إعتصامات، إتفاقات العمل الجماعيه، فكره الصناديق الحمراء التى تتجمع فيها تبرعات تتراكم لتسد فيما بعد إحتياجات العمال المضربين.. الخ]

تصارعت المجموعتان، وتداخلتا. وتأثر كل منهما بالآخر، بما أثمر حركه نقابية مصرية نمت سريعاًوربما بأسرع من نمو الطبقة البرجوازية المصرية، بفضل هذا التداخل المتناقض، الذى أثمر أساليب نضال جماعى مبكر إقتبست أساساً من الاجنبى، وإستخدمت ضده فى أحيان كثيرة، وأثمر هذا التناقض المتداخل حركة عمالية قوية فى مطلع العشرينيات.

* وعلى المستوي السياسى هناك أمثلة عديدة ، سأكتفى بإثنين منها.. فى الاربعينيات قامت منظمة شيوعية [طليعة العمال] بتوثيق علاقاتها بالشباب الوفدى، وتكاثر أعضاؤها وأصدقاؤها فى صفوفهم، ومن ثم إستطاعت ان تجذب العديد منهم إلى صفوفها. ووقعت حالة نموذجية من التناقض المتداخل، الفارق الفكرى والطبقى والعملى والنضالى واضح تمام الوضوح، بل هو صارخ إلى حد التناقض الملتهب، لكن التداخل خلق حالة جديدة، إستمدت جديتها من ظروف موضوعية.. الوفد فى المعارضة منذ زمن طويل، محروم من حقه في إنتخابات حرة تصعد به حتماً إلى سدة الحكم [وهو ما حدث عام ١٩٥٠] وموجة اليسار العالمى تزحف بإنتصارات السوفييت الصاخبة والمبهرة على جيوش النازى، وزعيم الوفد مصطفى النحاس متسامح فكرياً، وليبرالى موقفاً إزاء التنوع الفكرى فى صفوف الحزب وصحافته، ومفكرون ليبراليون ذوى إنحياز واضح لليسار أمثال د. محمد مندور يتداخلون هم أيضا فى الوفد وصحافته .. ويثمر هذا التناقض المتداخل فى ظل هذه الظروف الموضوعية المواتية حالة وفدية جديدة، وحالة

ماركسية جديدة.

يمكن متابعة معطياتها عير دراسة مجلة رابطة الشباب، وجريدة صوت الامة فى بعض مراحلها ومجلتى النداء والشعلة.. وتنظيم الطليعة الوفدية.. الخ

* وفي بداية الخمسينيات نجح عبد الناصر في تحقيق صيغة التناقض المتداخل فى تنظيم الضباط الأحرار حيث إستطاع خلق وعاء تتداخل فى صفوفه عناصر شديدة التناقض ضباط وطنيون بعضهم كان فى الاربعينيات معجباً بهتلر وحاول ان يفعل شيئا على درب عزيز باشا المصرى، وضباط شيوعيون [منظمة الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى - حدتو] . وضباط من الاخوان المسلمين، والغريب ان هذه التركيبة تداخلت وإنصهرت وأثمرت بالنسبة للكثيرين، وإن كانت تمايزت عن سبيكتها عناصر من هذا الطرف أو ذاك ظلت على ولائهاللفكرة القديمة.

ووقع التصادم. تخلى عبد الناصر عن وعوده بحياة ديمقراطية وإصطدم به الشيوعيون صداماً شديداً لديداً، ويتصاعد التناقض إلى أقصى مداه [الشيوعيون وصفوة أحيانا بالدكتاتور العكسرى وفى أحيان أخرى بالفاشى،

وهو وصفهم بالعملاء .. وفتح أبواب سجونه ومعتقلاته لآلاف منهم]. وفيما السجون تطبق على آلاف، والتعذيب الوحشي يفتك بهم، ويسقط بسببه شهداء عديدون. في هذه اللحظات بالذات والتناقض في قمته، يثمر التداخل.. ثماراً تتغذى بواقع موضوعى [الصراع مع اسرائيل. أمريكا ترفض تسليح عبد الناصر. ثم فيما بعد ترفض تمويل السد العالى]ويتجه عبد الناصر إلى باندونج - الحياد الايجابى - الاعتراف بالصين الشعبيه - صفقة السلاح التشيكية.]

ثم يتفاعل التداخل، وبينما الشيوعيون في السجون يكون الاصلاح الزراعى [الثانى] والتأميمات.. والميثاق والحديث عن «الاشتراكيه العلميه»..الخ.

إن قراءة ولوعابرة للميثاق الوطنى توضح حقيقة الأثر الفكرى والسياسى لهذا التداخل. فإذا كان الاقتراب من السوفييت ضرورياً للحصول على معونات، وسلاح، ومصانع ، وسند ضد الترويع الامريكى، فمن أين أتى الميثاق، ومن أين أتت هذه النزعات الطبقية الواضحة، ومن أين أتت «الاشتراكية العلمية» التى كرسهاالميثاق؟ ولم يكن تأثير التداخل أحادى الجانب، ولعل التجسيد العملى لفكرة

التناقض المتداخل بين عبد الناصر والشيوعيون يمكن تصويره بما يشبه الدراما الكوميدية فى واحدة من أشهر المحاكمات، مجموعة من شيوعيى منظمة حدتو تم تقديمهم عام ١٩٦١ إلى مجلس عسكرى عال برآسة الفريق هلال عبد الله هلال قائد سلاح المدفعية، والتهمة كما نص عليها قرار الاتهام ، هى مخالفتهم لأحكام المواد ٩٧أ، ٩٧ب من قانون العقوبات والتى تعاقب بالسجن مده لاتزيد عن عشر سنوات أشغال شاقة كل من نظم وأدار منظمه تدعو لتأميم أملاك الغير..الخ وفيما المتهمون ماثلون أمام المجلس العسكرى صدرت قرارات تأميم الصحف ثم تأميم البنوك. الدفاع كان يدافع عن المتهمين فإذا به يدافع عن الحكومة، والمدعى العسكرى كان يهاجم المتهمين فإذا به يهاجم الحكومه. وإرتبكت الجلسات، وفقدت المحكمه منطقها، عندما حاول المتهمون الدفاع عن أفكارهم تبدوا وكأنهم يدافعون عن الحكومة بذات عباراتها «ضد الاستعمار والامبرياليه، الصداقة.. مع الاتحاد السوفيتى، كسر إحتكار السلاح.. التأميمات، الدفاع عن العمال والفلاحين.. الخ ثم تتجسد الدراما المبكية فى إنتهاء المحاكمه بأحكام شديدة القسوة،

سبقتها جريمة تعذيب بشعة فى ليمان أبى زعبل إستشهد خلالها المتهم الأول فى القضية شهدى عطية.

وهكذا تأثر عبد الناصر بالفكر الذى يعتنقه مسجونيه، والذين أغلق عليهم سجونه بسبب إنتمائهم لهذا الفكر ذاته، ثم إذابه ينشد ما هو قريب جداً من أناشيدهم، ويردد ما هو قريب جداً من شعاراتهم وبرامجهم، بينما هم وياللغرابة لم يزالوا فى سجونه. كذلك - أيضا- تأثر الشيوعيون به وبأفكاره، وحتى بممارساته، فكانت فكرة «المجموعة الاشتراكية التى فى قمة السلطه» [حدتو]، وقد ولدت هذه الفكرة فى واحد من أبشع سجون عبد الناصر، سجن القناطر، ثم كان قيام الجميع بحل تنظيماتهم [وكانت هناك إستثناءات محدوده رفضت الحل] حلوا تنظيمهم الذى إحتملوا فى سبيله أهوالا وعذابات، وسجوناً وتضحيات، بأمل أن يثمر التداخل الفكرى الحاد ثمرة جديدة، تحالفايوحد الاشتراكيين.

وهو ما لم يحدث ربما لسبب ان البعض من رجال عبد العناصر لم يكن يريد، فأفسد كل شئ - وربما لأن عبد الناصر قد نال ما أراد بحل الشيوعيين لحزبهم، وإكتفى بذلك.

وبعد.. أليس هذا نموذج نموذجي للتناقض المتداخل؟

* * *

ولكن هذا النموذج ذاته يعطي للفكرة سواء في شقها الفلسفي أو المجتمعي أو السياسي مذاقاً غريبا يتخوف منه البعض. فما أن نتحدث عن حقيقة فلسفية تنعكس أمام أعيننا كل يوم وفي أكثر من مجال حتى تثار مخاوف وتساؤلات.. هل يستهدف القائلون بذلك الانغماس في حمأة النظام والارتماء في أحضانه إلى درجة الانصهار فيه.؟

لكن التمادي في فكرة ما، أوموقف ما، إلى حد إرتكاب خطأ تاريخي، لا يعني رفض ما هو حقيقي وما هو موضوعي.

ثم اننا لا نطلب من أحد أن يفعل شيئاً، أو أن يفتعل شيئاً، فقط نحن نطرح فكرة ترسخت فلسفياً وواقعياً، وهي موجودة في مناحي الحياة المختلفة، موجودة حتى في الطبيعة، وعلم الفيزياء وعلم النبات .. الخ

وهي تتسلل إلى حياتنا دون أن نلحظها، تتراكم خطوة خطوة، ثم تتجلى معطياتها عندما تنضج .

إن دراسة هذه الفكرة وتأملها تمكننا ليس فقط من فهم

عديد من الوقائع التاريخية والمجتمعية، وإنما تفتح أمامنا أبواب فعل قصدى يستهدف إستهداف التداخل للتأثير فى قلعة الطرف الآخر.

فمثلا .. نجد أن زملاءنا فى مجلسي الشعب والشورى أو المجالس المحلية أو النقابات والجمعيات يمكنهم أن يتخذوا موقف التباعد الحدى بينهم وبين الآخرين، أو يمكنهم أن يؤثروا فى الآخرين بمسلكهم أوموقفهم .. لكن المسلك والموقف لا يكفيان وحدهما إذا ما غلفتهما حاله من التباعد، وربما الترفع الرافض للآخرين وكأنهم جميعا سبيكة واحدة ، وإنما يحتاج الأمر إلى مزاوجه الموقف والمسلك والقدوة بعملية فرز متأنيه للمعسكر الآخر، وإختيار العناصر الافضل والغير منغمسة فى الفساد ، ونسج علاقات معها.. أى بالدقة «التداخل» فى قلعة الطرف الآخر.. فإن فعلنا ذلك سنكتشف أن مكانتنا ستزداد ، وقدرتنا علي التأثير ستزداد ، وأثر مواقفنا سيزداد.. طبعا لن يكون المستهدف إنتزاع هؤلاء من قلعتهم، فهى موئلهم، وعن طريقها صعدوا ، وربما بدونها لا يستطيعون، ولكن هذا التداخل سيخلق مناخاً مواتياً لنا لمزيد من الفعل ومزيد من

التـأثيـر.. وسـيـمنحنا القدرة على طرح أفكارنا ومـواقـفنا بصورة أفضل. وإجتذاب مناصرين لها ولنا.. حتى فى قلعة الخصم . وهو يحدث فـعلا وإن بصـورة محدودة، فلماذا لا نواصل حـتى نحـصل على المزيد؟ ويمكن الاشـارة هنا إلى تجسيد واقعى لمثل هذا التداخل .. ففى معركة إنتخابات مجلس الشعب الاخيرة قدم عديد من رجال الاعمال مساندة مالية لمرشحى التجمع.. فكيف كان ذلك ولماذا ؟ هم ونحن مختلفون أشد الاختلاف فى مواقف وتوجهات وإنتماءات فكرية عديدة. لكنهم يحترموننا ، ويحترمون شجاعتنا ووطنيتنا ونظافة أيدينا، ويحترمون جريدتنا لأنها بعيدة عن الابتزاز مترفعة عن الدنايا ومن ثم يقدمون لنا ما يعتبرونه نوعا من «التحية» ونبقى نحن، ويبقون هم على خلافنا واختلافنا

* * *

ويمكن القول اننا جميعا قد فعلنا ذلك بشكل جماعى.. حيث نجحنا فى تحويل حزبنا من حزب تم فرزه بعيداً عن مجرى الأحداث وعن ساحة الفعل المؤثر، إلى حزبٍ متواجدٍ فى المساحة الحية من الساحة،فأصبحنا جزءاً من الجسد

المصرى، من دمه ولحمه، وليس مجرد «ماكياج» يمكن الاغتسال منه فى أيه لحظة .

ان حاله العلاقة الراهنة بين التجمع والمجتمع هى نموذج نموذجى .. فبعد حالة من العزلة المنعزلة عن الدائرة الاساسية فى الفعل السياسى والمجتمعى والنقابى والاعلامى، بعد حالة كنا نشعر فيها اننا على هامش هذا العالم، لسنا منه وليس منا، تراكمت حالة تداخل منتظمة جعلت من كوادرنا - البعض منهم حتى الآن - عناصر فاعلة فى محيطها، محترمه فى محيطها، ومقبولة من الناس، يختلفون معهم لكنهم يحترمونهم، وهذه مسأله جوهرية إن أحسنا الاستفادة منها ستجعل منا حزباً أكثر تأثيراً بشكل متصاعد فى المجتمع..

ولعل أحداً لا يختلف الآن على أننا نحظى باحترام وقبول من فئات وعناصر ورموز أوسع بكثير مما كنا فى الماضى. انه ثمرة تراكم «التداخل».. أليس كذلك؟

ومن هنا تكمن أهمية تفهم هذا الموضوع .. والتعامل معه بجدية.

وبالمناسبة فإن التداخل لا يعنى الذوبان فى الآخر أو

التنازل له. بل لعلى أؤكد ان هؤلاء الذين نتداخل معهم يزداد إحترامهم لنا كلما كنا أكثر دفاعاً عن مبادئنا ومواقفنا، وكلما تجلى لهم ترفعنا عن المغانم الشخصية، أو النفاق، أو التراجع عن الحق والحقيقه..

لكن هذا شئ، والانعزال المتباعد شئ آخر .. شئ آخر تماما.

والهدف من إيضاح هذا الفارق.. هو الهدف من كل هذه الكتابه.

أخيراً

- إن قبول الجديد أمر صعب
لكن التخلى عن القديم أمر
شديد الصعوبة

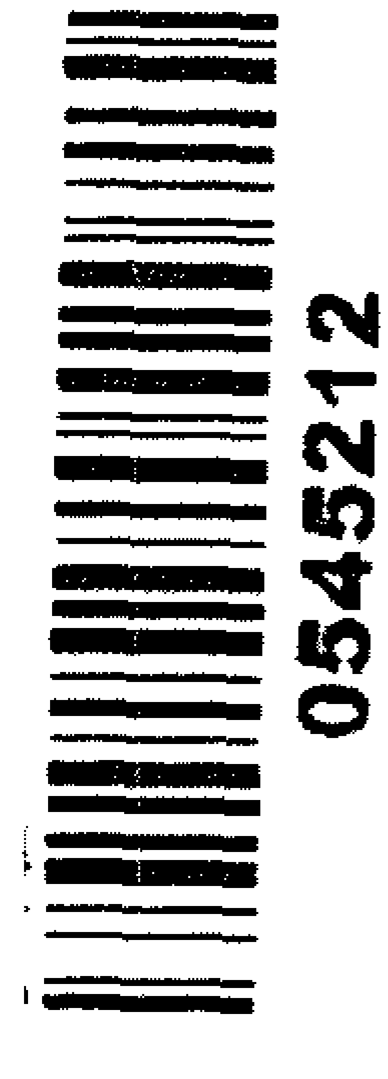
كانت

- إن إحلال الجديد محل القديم
لا يتسنى بسهولة..

شبلى شميل

رقم الإيداع : ١١٠٦٧ / ٢٠٠١
الترقيم الدولى 2 - 21 - 5130 - 977

شركة الأمل للطباعة والنشر
(مورافيتلى سابقاً)



ثلاثة جنيه